

الله جل جلاله والسلوب والстиلا

تأليف
الدكتور أنيس فرجي

دار الجيت
بيروت



الْأَجْلَاتُ
وَالْسَّلَوَاتُ وَالسَّهَا

تأليف
الدكتور أنيس فرجيـه

ولار الجيـه
بـيرودـت



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل

الطبعة الأولى

١٩٨٩ - ١٤٠٩

مقدمة

إن قضية «الفصحي والعامية» من أهم المشاكل التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم، في مختلف البلاد العربية، منذ مدة غير بسيرة.

ذلك لأن الفصحي لا يعرفها إلا المثقفون، ولا يخاطب بها إلا طوائف محدودة من هؤلاء؟ وأما العامية الدارجة، فهي كثيرة الأنواع، تختلف اختلافاً بيئياً لا من قطر إلى قطر فحسب، بل من مدينة إلى مدينة في القطر الواحد أيضاً. حتى إنها تختلف بعض الاختلاف من حارة إلى حارة، ومن جماعة إلى جماعة، في المدينة الواحدة، في بعض الأحيان.

إذن، فنحن - عرب اليوم - بين لغة فصحي، يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية، وبين لغات عامية عديدة، يتفاهم بكل منها جميع الناس، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية.

ولا حاجة إلى القول بأن هذه الحالة مخالفة لمتضيّات الحياة القومية السليمة، من وجوه عديدة:

فإن كل أمة من الأمم تحتاج إلى لغة «موحدة» تزيدها تجاوباً وتماسكاً، فتكون «موحدة».

لأن مهمة اللغة - في الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية - لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المخاطبين الذين يعيشون في قرية واحدة أو مدينة واحدة، ولا

بين الذين ينتسبون إلى إقليم واحد، أو قطر واحد، بل هي ضمان التفاهم والتکاتب والتخاطب وال التجاوب .. بين جميع أبناء الأمة، على اختلاف مدنهم وأقطارهم.

والتاريخ الحديث مليء بأمثلة بلية، على الجهد الجبار الذي بذلها - ولا يزال يبذلها - عدد غير قليل من الأمم والدول في هذا السبيل، توطئة لاستقلالها، أو ضماناً لوحدتها.

فنحن العرب نفتقر اليوم إلى «لغة» يتفاهم بها جميع الناس، في جميع الأقطار العربية.

ولكن، ما السبيل إلى ذلك؟

ماذا يجب أن نعمل للتخلص من البلبلة الحالية، والتنعم بنعمة «لغة موحدة وموحدة» في جميع الأقطار العربية؟

إذا ثاملنا في هذا الأمر بالمنطق المجرد، خطر على بألنا ثلاثة سبل أساسية:

(أ) السعي وراء نشر وتعيم لغة من اللغات الدارجة - أي لهجة من اللهجات العامية - على جميع البلاد العربية؟

(ب) السعي وراء نشر اللغة الفصحى، بين جميع طبقات الشعب، في كل قطر من الأقطار العربية.

(جـ) السير على طريقة متوسطة بين الأولى والثانية، على أساس تطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى.

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الأولى - أي طريقة تعيم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية - غير منطقية وغير عملية. فلا بد من التوجّه إلى اللغة الفصحى، التي لها جذور عميقـة وأسس متينة، ومثـلون أقوىـاء، في

جميع البلاد العربية. ولذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش في الطريقتين الآخرين وحدهما :

من المعلوم أن قواعد الفصحي، في حالتها الحاضرة، معقدة كل التعقيد، وصعبه أشد الصعوبة، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعدها كثيراً. فيجدر بنا أن نسأل: هل من الضروري أن نتمسك بجميع تلك القواعد التي وضعها أو دونها اللغويون منذ قرون عديدة؟ هل يتحتم علينا أن نصرف قوانا في سبيل نشر وتعليم جميع تلك القواعد والأساليب؟ ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحي، ونشذ بها تشذيباً معقولاً، يكتسبها شيئاً من السهولة، من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية؟ أفلأ نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحي تطعيمًا يبعدها عن حذقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس في وقت واحد، فيوصلنا إلى فصحي متوسطة، معتدلة؟ أفلأ يحسن بنا أن نلجم إلى هذه الطريقة، ولو بصورة مؤقتة، كمرحلة من مراحل السير والتقدم نحو الفصحي التام؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة - إجابة صحيحة - تتطلب القيام بأبحاث علمية واسعة النطاق، تتناول اللغة الفصحي واللغات الدارجة في وقت واحد، وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها، وتقلب المسائل على جميع وجهها.

أولاً، يجب أن نبحث: ما هي الحدود الفاصلة بين الفصحي وبين العامية؟ ما هي الفروق التي تميز الأولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية لفظها من ناحية، ومن حيث التراكيب وأسلوب ترتيبها من ناحية أخرى؟

وفي أمر المفردات: هل يجوز لنا أن نعتمد على المعاجم والقاميس المعلومة كل الاعتماد؟ يجب أن نفكر في ذلك ملياً، لأنه من المعلوم أن تلك المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التي لم يعد أحد يشعر بحاجة إلى استعمالها، ومقابل ذلك أنها خالية من عدد غير قليل من الكلمات التي استعملها ولا يزال يستعملها أشهر الأدباء والعلماء في أهم آثارهم العلمية والأدبية، كما أن الكثير

من الكلمات القاموسية تستعمل الآن في معانٍ مختلفٍ عن المعاني التي كان قد دوّنها القدماء كل الاختلاف؛ فلا بد لنا من أن نبحث عن معيار آخر يساعد على تمييز الفصحى عن العامى تمييزاً معقولاً.

وفي أمر القواعد: هل يترتب علينا أن نعتبر آراء العلماء القدماء القول الفصل فيها؟ ألم يختلف هؤلاء أنفسهم فيما بينهم في أمور التجويز والتفضيل والترجح؟ أفلًا يحق لنا أن نعيد البحث والنظر في تلك الأقوال والأراء، وأن نسلك مسلكاً يختلف عن مسالكهم في أمر التجويز والتفضيل؟ وهل يتتحم علينا أن نسعى وراء نشر وتعيم تلك القواعد بجذافيرها؟ أفلًا يمكننا أن نستغني عن البعض منها لنجعلها أقل تعقيداً وأكثر قابلية للانتشار؟ وفي الأخير، ولو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد، أفلًا يجب علينا أن نرتبتها ترتيباً معقولاً، لنقدم الأهم على المهم ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا «التفصيحية»؟

ثانياً: يجب علينا أن ندرس اللغات العامية *dialects* واللهجات المحلية *patois*، المنتشرة في مختلف البلاد العربية: ما هي أنواعها؟ وما هي خصائص كل نوع منها من حيث الكلمات والألفاظ والتعابير؟ وما هي حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والأساليب والتعابير؟ وما هي أسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية، وبعضها عن بعض من ناحية أخرى، إلا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق؟ إلا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشتركة؟ إلا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشتركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة؟ أفلًا يجب علينا أن نستكشف هذه الدوافع وال حاجات لكي نستطيع أن نعالجها بأساليب أقرب إلى الفصاحة على قدر الإمكان؟ إن كل هذه الأمور والمسائل يجب أن تدرس وتبحث بكل اهتمام.

وفضلاً عن ذلك كله يجب علينا أن تتبع التطورات التاريخية أيضاً: من

العلوم أن اللغة كائن حي ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعاً لنمو الأفكار وتتنوع الحاجات . فإن لكل كلمة ، وكل أسلوب ، في كل لغة وفي كل لهجة تاريخاً طويلاً أو قصيراً ، ماضياً قريباً أو بعيداً .

إن نظرة فاحصة سريعة إلى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية في مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريباً - منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى مثلاً - تكفي للتأكد من صحة ما قلناه آنفاً : لقد حدثت تطورات كبيرة في لغة الدواوين ، وفي لغة الصحف ، وفي لغة التخاطب في مختلف البيئات ، في جميع البلاد العربية . فقد دخل في كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة مشتقة من أصول فصيحة ، أو مقتبسة من اللغات الأجنبية . معظم هذه الكلمات المقتبسة ، كانت فرنسية في بعض البلاد العربية ، وإنكليزية في بعضها الآخر ، وأسبانية في بعضها وإيطالية في بعضها الآخر ، وذلك تبعاً للأوضاع السياسية الخاصة التي طرأت على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة أخرى بدأت حركة معاكسة لذلك لترك تلك الكلمات الأجنبية واستبدالها بكلمات عربية .

ثم إن ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والأرياف من جهة ، وبين الأقطار المختلفة من جهة أخرى ، أدى إلى حدوث تغير محسوس في أوضاع اللهجات المحلية وفي التعبير العامية أيضاً : صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيراً كبيراً في اللهجات الفرعية ، كما أن لغة عامة الناس أيضاًأخذت تتهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وإزدهار الصحافة ، وتعريب دواوين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية .

ولا نغالي إذا قلنا ، إنه أخذ يتكون في بيئات المثقفين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية .

فيحسن بنا أن نتعمق ونتوسع في دروس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها ونستنير في تقرير خططنا الاصلاحية .

يبين من كل ما تقدم ، أن الأبحاث اللغوية لا يجوز أن تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة ، بل يجب أن تخرج إلى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب علينا أن لا ننسى أن علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ، ودوّنوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا أن نقتدي بهم في هذا المضمار : فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، في كل مدينة وفي كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنائين والتجار ، في المدن والأرياف ، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والأطفال

ولا يجوز لنا أن نتقاعس عن العمل في هذا السبيل بحجج « الاكتفاء باللغة الفصحى » ؟ إذ يجب علينا أن نعلم العلم اليقين بأن تغيير الأشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها ..

إن معهد الدراسات العربية العالية قد أدخل في برامجه أمر دراسة « اللهجات العربية الحالية » (بناء على الملاحظات الآتية الذكر) .

والغاية القصوى منها ، هي إعداد الأبحاث العلمية الالزامية لاستكشاف أخجى السبيل لجعل لغة الضاد « موحدة موحدة » في جميع البلاد العربية .

إن محاضرات الدكتور أنيس فريحة - التي نقدمها اليوم - هي مقدمة لهذه الدراسات .

أبو خلدون
ساطع الخصري

١٩٥٥/٢/١٩

مقدمة

يمحسن بنا، ونخن في هذه الغمرة من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، أن نعيد النظر في تقييم الأشياء، حتى وإن كانت هذه الأشياء من الحرمات والمقدسات. لأن على الأمة الناشئة التي تبني للحياة أن تؤسس على حقائق، إذ لا يحرر الفكر سوى الحقيقة.

واللغة من الأمور التي ينبغي لنا أن نعيد النظر فيها. فاللغة أساس الفكر وطريق الإنسان لإدراك الكون. ولكن تفكيرنا اللغوي لا يخرج عن نطاق التاريخ والتقليد: ونظرتنا إلى اللغة لا تتعدي حدود العاطفة. ورغم أن العرب اليوم يحاولون أن يجاهموا قضياباهم الاجتماعية والسياسية بروح الموضوعية العلمية أراهم في قضيابا اللغة يؤثرون العاطفة ويحكمون القلب. ولكن اللغة شأنها شأن كل مؤسسة بشرية أخرى تخضع للكم والكيف، وقد آن للعرب أن ينظروا إلى اللغة نظريتهم إلى أية مؤسسة أخرى تخضع لقوانين العلم.

وإنيأشعر باعتزاز وفخر أن يتبع لي معهد الدراسات العربية العالمية فرصة إثارة قضية اللغة ودرسها على صعيد الفكر. ففي هذه المحاضرات القليلة العدد سنعيد النظر في تعريف اللغة وتطورها وتجزئها إلى لهجات محكية وأسلوب دراسة هذه اللهجات دراسة تقريرية وصفية (descriptive) وسنخصص لهجة لبنان بأكبر نصيب من البحث.

وموضوع اللغة الأدبية والمحكية موضوع خطير، ولكنه حساس مثير. ولا

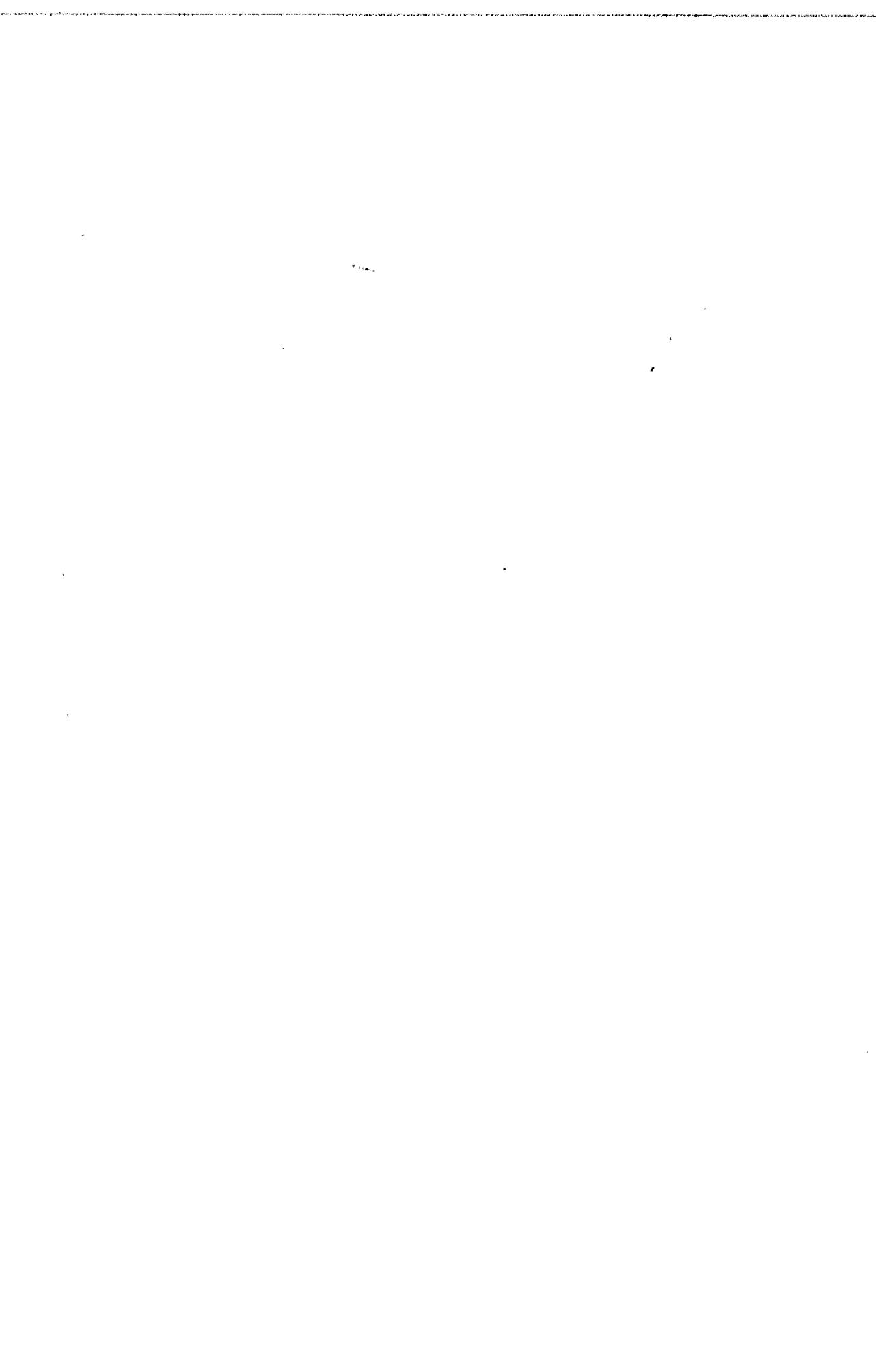
غرو فاللغة لصيقة بالدين والأدب والتاريخ والقومية. ولست أشك في أن ما
أقوله خروج على المألوف في تفكيرنا اللغوي. ولكنني موقن أنكم ستقبلون
هذه النظريات بالروح التي يفرضها العلم.

أنيس فريحة

لا يصل امرؤ الى مرتبة الحقيقة ما لم يعامله الف صديق
له كأنه زنديق

(الجند)

القسم الاول
في اللغة



نظرة في نشأة العربية الفصحى

من التواحي المجهولة في تاريخ اللغة العربية نشأتها الأولى. فاتنا لا نعرف عنها شيئاً يقينياً. ولكن لا يكاد القرن السابع ميلادي ينتصف حتى يجد مؤرخ اللغة نفسه امام لغة غنية بفرداتها ، تامة في اعرابها ، متينة في تراكيبها ، صقيقة في اساليبها التعبيرية ، ناضجة في الصور التجريدية مما يدل على مبلغ من الرقي العقلي يتنافى والصورة المشوهة التي صور بها المؤرخون التابعون اعراب البادية.

تنتمي هذه اللغة الفتية بعدها الى الشعبة الجنوبية من اللغات السامية. وهذه الشعبة الجنوبية تضم لهجات الحبشة واليمن والجزيرة العربية. واذا اعتبرنا بهذه اللهجات وحدة فان العربية الفصحى ، مدار دراستنا ، تشكل الفرع الشمالي لهذه اللهجات. وليس لنا ان نستطرد في الكلام عن اوجه الخلاف بين العربية الشمالية (العربية الفصحى) وبين لهجات اليمن ، فان ذلك من اختصاص علماء اللغة بالمقابلة. انا نريد أن نؤكد ان العربية الفصحى لغة مغايرة للغة العربية الجنوبية. وقد فطن الى هذا الخلاف قدامى اللغويين ، فكان ابو عمرو بن العلاء يقول : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا ».

تعرف العربية الفصحى بلغة عدنان مقابلة لها بلغة قحطان. وتعرف كذلك بلغة مصر. ويفضل المتأخرون تسميتها بلغة قريش او لغة مكة. وعندنا ان هذه التسمية الاخيرة ليست دقيقة. ذلك لأن الدور الذي لعبته قريش او مكة في تكوين هذه اللغة قبل الاسلام ثانوي لا يؤبه به ، بدليل ان الشعر الذي

اعتمده الصرفيون وال نحويون عند استنباط قواعد اللغة واحكامها - واكثر ما اعتمدوا الشعر الجاهلي - كان شعراً - نجدية حجازياً . ولا ينكر اللغويون القدامى ان جل ما اخذوه كان عن الاعراب لا عن اهل المدن ، وتحقيقاً عن قيس وتميم واسد . غير ان نسبة الفصحى الى قريش ومكة اسلامية ، وذلك لما اكتسبته قريش ومكة من مكانة دينية سياسية سامية . ومهما يكن من امر هذه الاسماء التي عرفت وتعرف به هذه اللغة - عدنانية ، مضرية ، قرشية مكية ، نجدية - حجازية - فان دلالتها واحدة ، هي هذه اللغة التي تحدرت اليها والتي نعرفها نحن بالعربية الفصحى مقابلة لها بالعربية المحكية العامية ، والتي هي محور هذه الدراسة .

تاريخ هذه اللغة يشير مشاكل لغوية تاريخية عديدة . أين نشأت؟ هل كانت لغة تناطىب ، واي قوم كانوا يتناطبون بها؟ أم كانت لغة الشعر والادب والدين؟ ماذا نعرف عنها قبل ان دون بها القرآن الكريم وقبل ان تجتمع النتف الباقية من ادب الجاهليين؟ هل يعقل ان تكون وليدة ليلة وضحاها ام وراءها تاريخ مديد غامض؟ اسئلة تصعب الاجابة عنها اجابة علمية دقيقة لندرة المصادر والوثائق السابقة لعصر التدوين . فلا يبقى لدى المؤرخ الا ان يعتمد اللغة كما تحدرت اليها منذ القرن السابع ميلادي .

ولكن لا يصح اعتقاد اللغة كما تحدرت اليها مدونة مصدراً لدراسة اللغة في عهودها السابقة . ذلك لأن الذين استنبطوا قواعدها ، وضبطوا احکامها اعتمدوا الشعر الجاهلي اولا ثم القرآن الكريم مادة لغوية ، ومتى كان الشعر ولغة الادب والدين مرآة تعكس لغة الناس في معايشهم ومكاسبهم؟ الشعر صناعة والادب خلق فني . اما لغة الناس فنتيجة تطور طبيعي بعيد عن الصنعة والزخرف . وكذلك لا يصح اعتقاد المادة اللغوية التي عثر عليها على الحجراء والأنصبة في الحجاز وفي شمالي الجزيرة العربية واطرافها مما يلي بلاد الآراميين . فانها لغة على كثير من الركاك و الرطانة والعمدة حتى ان استاذنا الالماني ، انور لنهان ، الذي حل رموز النقوش الشمودية والصفوية كان يشعر انها ليست

عربية. ولم نشعر نحن ، طلبته الذين درسنا هذه النقوش عليه ، أنها عربية. وان كنت في شك من ذلك فما عليك الا ان تقرأ النقش الذي وجد في النار ، وهي قصر للروم من اعمال حوران ، ويعرف بنقش امرىء القيس احد ملوك الحيرة . فانك ستجد لنفسك انه لا يمكن ان تكون لغة هذه النقوش ذات صلة بلغتنا العربية الفصحى كما تعهدنا في الشعر الجاهلي والنثر القرآني . ومن هنا كانت احتجاجة اللغة العربية الفصحى المعاشرة ! لغة ، هذا مبلغ رقيها ، لا ترك لنا اثراً ادبياً جاهلياً ننذر منه الى اغوار الماضي البعيد ؟ .

وعليه سنترك الناحية التاريخية جانباً الى ان توفر الوثائق الكتابية السابقة لعصر التدوين ، والى ان تدرس اللهجات العربية التي اشار اليها اللغويون والتي ابقت المصادر العربية نتفا منها (كما فعل الماحظ مثلاً) . وسنحصر همنا بدرس المشكلة اللغوية من نواحيها الاجتماعية الفكرية التربوية . ولكن يحسن بنا قبل الاسترسال في البحث ان نأتي على ذكر بعض ما امتازت به العربية من صفات اهلتها ان تكون لغة علم وفلسفة الى جانب كونها لغة دين وشعر . وهي ليست صفات ملزمة للغة العربية بل هي مميزات لغوية عامة تتصف بها اکثر اللغات الراقية .

(أ) الذخيرة اللغوية :

الذخيرة اللغوية العربية تفوق بعنانها اية لغة سامية اخرى . ولا اسراف في القول ان معجم العربية من اضخم المعاجم . وان المرء ليقف معججاً حائزاً امام هذا البحر من الالفاظ ، وهذا الغنى في المترادفات والاصداف ، حتى ان بعضهم يرى في هذه الظاهرة موضع فخر ومباهة . فلكل ساعة من ساعات النهار اسم ولكل ليلة من ليالي القمر اسم ، وللسنة ٢٤ اسم وللظلم ٥٢ اسم ، وللسحاب ٥٠ اسم ، وللمطر ٦٤ وللماء ١٧٠ وللناقة ٢٥٥ وللسيف اسماء لا يحضرني عددها ، وللداهية من الاسماء تعد بالمئات حتى قيل ان اسماء الدواهي

من الدواهي، وقد احصى هامر^(١) المفردات التي لها علاقة بالجمل فبلغت ٥٧٤٤ لفظة، ولذلك ان تضيف الى هذه اذا كان لديك من الوقت ما تتهي به في التقصي ومراجعة المعجم العربي. ونحن نعلم ان هذه المترادفات هي اوصاف ومجازات ولكن رغم هذا كله فاننا نستطيع ان نقول ان العربية غنية جداً بعمراداتها.

ولكن تجدر بنا الاشارة اولاً الى ان الجمجمة تناول لغات عربية كثيرة، وكان الحماس للجمجمة بالغاً مبلغه فاقحموا هذه الكثرة دون روية في التحقيق. وليس في قولنا هذا ما يقلل من احترامنا لاولئك العلماء الافذاذ. ولكن عمل المعجم لا يتم بالطريقة الفردية. غير ان من يعرف «لسان العرب» او «التاباج» او «القاموس» لا يستطيع الا ان يرفع قبعته اجلالاً لجامعيها. ونلاحظ ثانياً ان الكثرة الكثيرة من هذه الكلمات تعكس الحياة الصحراوية البدائية وهذا طبيعي. وكان على هذه اللغة الصحراوية الفقيرة بالمفردات التجريدية الفلسفية والعلمية والفنية والصناعية نسبياً ان تلين لتطور الحياة العربية العقلية. وقد نجحت في هذا نجاحاً جزئياً. ونلاحظ ثالثاً ان هذه الكثرة من المفردات اللصيقة بالحياة البدوية اصبحت على مرّ العصور ممانة. اماتتها الحياة ونبذتها، لأن الحياة العربية ابتعدت عن الصحراء وما إليها من بدأوة.

(ب) التصعيد:

ونريد بهذا المصطلح قدرة اللغة على التجريد، اي تجريد الصورة المادية ونقلها الى صعيد معنوي، بكلام آخر الصعود باللفظة من معناها الحسي الى المعنوي. وهذه صفة تتصرف بها كل لغة راقية ولا تقل العربية عن سائر اللغات قابلية في التصعيد. فمن منا اليوم يقرن لفظة «العقل» بجبل الشعر الذي كانت تربط به رجل الجمل؟ ومن منا يقرن «المجد» بامتلاء بطن

De Hammer: Das Kamel extrait des mem. de l'Academie de Vienne. Classe de Phil. (١)
et d'histoire t. VII.

الدابة، «والنفس» بحملية التنفس «والروح» بالريح والهواء؟ كل المعانى في طورها الاول كانت حسية ملموسة، ويتقدم الحياة والفكر من جهة، وقلة المفردات من جهة ثانية، وجد الانسان نفسه مضطراً لاستعمال مفردات قديمة لمعانٍ جديدة على طريقة التجوز والتتوسيع.

(ج) الاشتراق:

وكان يجب وضع هذه الخاصية في رأس قائمة الصفات المميزة للغة العربية فانها صفة تغنى اللغة كثيراً.

ترد الكلمات في جميع اللغات السامية الى جذور ثلاثة^(۱) نفترضها افتراضاً، معنى اننا لا نعرف كيف كانوا ينطقون هذا الجذر، ولا نعلم علم اليقين كيف استعملوه: اسمها ام فعلاً ام صفة. وعلى هذا الجذر، الذي يشبه جذع شجرة، تقوم اغصان تتفرع الى فروع، والفروع الى فروع فتنشأ منه شجرة نامية وارفة الظلال. وقد قدر احد هم امكانات الاشتراق باكثر من ۱۲۰ وزناً، اي اننا نستطيع «مبديئياً» ان نشتغل من جذر «علم» اكثراً من ۱۲۰ وزناً لمعانٍ مختلفة.

(د) التوليد:

وهو شبيه بالتصعيد. ويكون على نوعين: صوغ كلمات جديدة لا عهد للغة بها من قبل كاللامركزية والمائية والحيثية، او اسماً معنى جديد على كلمة قديمة لم توضع لهذا المعنى، مثل القاطرة والمحرك والجريدة والهاتف. وقد اظهرت اللغة قابلية فائقة للتوليد، ولم يتردد علماء العرب وفلسفتهم في توليد الالفاظ رغم معارضة بعض الرجعيين القائلين بالاكتفاء «بعصورة الاحتجاج» وهذه خاصة تغنى اللغة وتساعد على تطورها وغلوها لتعبير عن الحياة المتطرفة.

(۱) نحن نعرف اللغات السامية في طورها الثلاثي، وهو الطور الحالى. ولكن هذا لا يعني انها لم تمر سابقاً في طور ثانى، والقائلون بالثانوية كثيرون والايات متوفرة.

(هـ) التعریب:

وكانوا يقصدون به نطق الكلمة الأجنبية على نهج العربية واوزانها. وقد أظهرت العربية والعرب رحابة صدر لاقتباس المفردات الدالة على نواحي الحضارة التي أصبحوا ورثتها وبناتها. ولم تستنکف العربية يوماً، ابان سلطتها، على ان تقبل بالمعرب والدخل. وهو اقرار ضمني بان لا معدى للغات الناشئة عن الاقتباس، ولا يضر اللغة ان يدخل في عداد مفرداتها كلمات اجنبية. فان اللغات التي أصبحت لغات حضارات اخذت واعطت. وها ان العربية اعطت الفارسية والتركية وسائر اللغات الاخرى اكثر مما اخذت عنها.

(وـ) القياس:

وهذا مبدأ شريف تأخذ به العربية وجل العرب. يقوم هذا المبدأ على فلسفة لغوية اجتماعية: «ما قيس على كلام العرب فهو كلام العرب». وهو على نقیض مبدأ السماع الذي يقيد اخذ اللغة بالرواية والسمع. ومبدأ الأخذ بالقياس ثورة على القائلين بصفاء اللغة وصحتها وببلغتها في عصر معين او في جيل من الناس معين. ولا مبرر علمي لهذه الدعوة. فان الحس اللغوي والبلاغة في التعبير لا تقتصر على عصر او جيل.

ان هذه الصفات التي تتصف بها العربية: غنى في المفردات، وقدرة على التصعيد والتوليد، وامكانيات في الاشتغال عديدة، ومبدأ القياس والتعریب، دفعت بها الى تَبَوَّء مكانة مرموقة في العصور المتوسطة. ولكن الى جانب هذه العوامل البناءة نلحظ عوامل اخرى تعوق اللغة عن معاشرة الزمن. فها قد مر على الحياة العربية ما يقرب من ١٥٠٠ سنة ولغتهم لم يطرأ عليها تغيير ما ولا تبديل ما. عربية اليوم هي عربية امرئ القيس وجرير وناصيف اليازجي. ان الحياة تسير سيرها الحثيث، والعربیة اليوم في حالتها الحاضرة تحاول ان تماشی الزمن، ولكن سيرها بطيء. ولن نستطيع ايقاف الزمن. فان سرعة التقدم

عظيمة، وينتشر ان تسکع العربية في المؤخرة. وهذا هو جوهر المشكلة اللغوية، موضوع هذه الدراسة: زمن سريع التقدم ولغة مكبلة. ما هي هذه المشكلة اللغوية؟

المشكلة اللغوية

مشكلتنا اللغوية مشكلة كل شعب مزدوج اللغة (bilingual) فاننا نفكرون ونكلم ونغنى ونتعلم صلواتنا ونناغي اطفالنا ونهمس في آذان من نحبهم ونتفاهم مع من نرغب في التفاهم معهم ونشتات مع من يروق لنا ان نتشات معهم بلغة حكية سلسة سالية لا تعوق الفكر ولا تتطلب منا جهداً. ولكن عندما نقف موقفاً رسمية - كأن يكون احدنا معلماً او واعظاً او محامياً او محدياً - في الاذاعة او محاضراً في قاعة الدرس - علينا ان نتبين شخصية لغوية ثانية. علينا ان نتكلم لغة غريبة عن لغة الحياة، معرفية، معقدة، شديدة الاحكام في التركيب والتعبير. واللغة هي الفكر وطريق الانسان الى ادراك الكون والوجود. اذا فكرنا فاننا نفكر بوساطة اللغة، واذا ادركنا الامور فاننا ندركها بوساطة اللغة، واذا تصورنا الاشياء فاننا نتصورها بوساطة اللغة، واذا انتقلت اليها اختبارات الانسانية فانها تنتقل اليها بوساطة اللغة، اذن اللغة عنصر من عناصر الحياة الانسانية ومع هذا - وهنا يقع التناقض - فان علينا، في مواقفنا الرسمية ان نتكلم بلغة الاجيال الغابرة، علينا ان نعبر عن احساسنا ودواخلنا بلغة وقفت في مجريها عند نقطة معينة في الزمان والمكان عندما احيطت بهالة من التقديس، وعندما سيج حولها بسياج من الاحكام، فوقفت في تطورها عند هذه النقطة في الزمان والمكان. ولكن اللغة لا تقف عند نقطة معينة في الزمان والمكان، لأن اللغة مجرى، ونحن نأبى في مواقفنا الرسمية الا ان نعاكس المجرى، اذ بهذه اللغة علينا ان نعبر عن الحياة الحاضرة. في مثل هذه

الحال، عوضاً عن أن ينصرف المجهد العقلي إلى الفكر، ينصرف إلى الشكل الذي يعبر فيه عن الفكر - أي تصميم اللغة مخدومة لا خادمة.

ولا تظنن إننا الشعب الوحيد الذي مر في هذا الطور ، طور ازدواج اللغة ، فإن هناك أمّاً حية معاصرة وأمّاً من الماضي البعيد مررت في هذا الطور وعانت ما نعانيه: الإغريق ، الرومان ، المندو ، وغيرهم كثير . ولكن الغلبة في هذا الصراع بين لغة الحياة ولغة الكتاب كانت أبداً للشعب . وستتجلى لك هذه الحقائق في الفصول اللاحقة . ولكن الفارق بيننا وبين هذه الشعوب المزدوجة اللسان ينحصر في أمرين : أولاً انهم حلوا المشكلة باعترافهم أن لغة الحياة هي اللغة الصحيحة الفصحى . واعترافهم هذا رفع اللهجة المحكية إلى مرتبة اللغة الرسمية . ثانياً لم تكن مشاكلهم عويصة معقدة مرتبطة بقضايا الدين والآداب كما هي الحال عندنا . نحن نفوقهم في المشاكل عدداً وتعقيداً ، ويفوقوننا عزماً وراردة .

تنحصر مشاكل اللغة العربية الأساسية في أربعة أمور :

(أ) وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحي

(ب) تقييد الفصحي باحکام شديدة

(ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصنونة «الحركات»

(د) عجز العربية عن اللحاق بالعلم والفنون

وقد يضاف إليها مشكلة تدريس العربية بالأساليب التي كانت متتبعة في مدارس الكوفة والبصرة دون أن يطرأ عليها أي تعديل جوهري . وقد عالجنا هذه القضية في مقالين موضوع الأول «تدريس العربية من مشاكل اللغة العربية^(١) ، وموضوع الثاني «البيان والآداب من مشاكل التدريس^(٢) ». وقد

(١) نشرته مجلة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت في الجزء الرابع من السنة الرابعة (١٩٥٠)

(٢) مجلة الأبحاث الجزء الثالث من السنة الخامسة (أيلول ١٩٥٢)

حاولنا ان نعرو انخفاض مستوى العربية والنفرة من درسها الى هذه الاساليب التقليدية الجافة بعيدة عن المنطق وعلم النفس. وقد اقترحنا حل مشكلة تعلم قواعد اللغة فجاء الحل في شكل كراس عنوانه «تبسيط قواعد العربية وتنبيتها على اساس منطقي جديد^(١)» وقد وزعناه على جماعة المعلمين والادباء ، فأقرنا على رأينا جماعة وخالفنا الرأي جماعة أخرى. وفي دراستنا هذه لن نتعرض لهذه المشكلة الاخيرة - مشكلة تدريس اللغة وقواعدها - بل سننصر همنا الرئيسي على بحث المشكلة الاولى وما يترتب عليها من قضايا فكرية واجتماعية وتربوية .

(أ) وجود لغتين مختلفتين: عامية وفصحي^(٢)

ظن لغويو الغرب - ويجاريهم في تفكيرهم المعاصرون - ان لغة العرب القدامى كانت العربية الفصحي كما نعهدنا في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وفي القليل الذي وصلنا من النثر، اي تامة الاعراب وعلى مناهج البلاغة والفصاحة التي نعهدنا في المدون الادبي. ثم انه عندما خرج العرب من موطنهم الى مواطن الآرامية والفارسية والقبطية فقدوا «ملكة اللسان» كما يقول ابن خلدون وغيره، واخذت مظاهر الركاكاة والرطانة والعجمة تتسرّب الى لسانهم فنشأت اللهجات. وسنرى فيما يلي ان اثر لغة في لغة اخرى من العوامل التي تعمل على نشوء التغيير والتباين في اللغة، غير ان اسباب نشوء اللهجة تُرَدَّ الى عوامل اخرى اهمها ان اللغة لا تثبت على حال، فهي مجرى، وكلما بعد المجرى ظهر التباين.

نحن نعلم ان الفصحي بعد ان اصبحت لغة الدين وللغة الرسمية للدولة الجديدة أخضعت للقيود، القيود التي يفرضها الصرفيون وال نحويون. فهم

(١) طبع في جونية، مطابع المسلمين اللبنانيين (١٩٥٢)

(٢) سنتب في فصل تال ان العامية لغة قائمة بذاتها تختلف عن الفصحي في نظامها الصوتي والصرف والنحو والمجمعي، وهي اختلافات جوهرية تبرر اعتبارها لغة مغايرة للفصحي

يحرصون مخلصين على وضع نظام صرفي نحوى للغة حفاظاً عليها من الفساد . والخطأ ان اللغة لا تقيد . والشاهد على صحة دعوانا هو ان العامية ، اي لسان العامة ، لم يخضع لهذه القوانين والاحكام فسار سيره الطبيعي بينما بقيت الفصحى على اساليبها لم يتغير فيها شيء ما ، ان من جهة الصرف او من جهة النحو^(١) . فكان من الطبيعي ان تتسع الشقة بين اللغتين حتى أصبحتا في نظر علماء اللغة لغتين مختلفتين متغيرتين .

والنتائج المترتبة على هذه الازدواجية في اللغة بعيدة الاثر ، فاننا في حياتنا اليومية نتكلم لغة سلسة سالية تتميز بفقدان الاعراب وبغنى في الحروف المضوئات التي تضفي على النطق بها مسحة تناقض النطق بالفصحي . وكذلك تتميز بمرورها في التركيب وبسهولة في التعبير . ولكن في حياتنا الرسمية - في التعليم وفي القراءة والكتابة وفي المواقف الرسمية - علينا ان نتبين شخصية لغوية ثانية . ولا شك في ان ازدواجية اللغة تعوق الفكر ولا سيما عند الاولاد فانهم يلقنون بلغة غير لغتهم ويقرأون في كتب لغتها مغایرة للغتهم . وهذه كتب التدريس عندنا شاهدة على صحة دعوانا ، هؤلاء هم اطفالنا يعانون من تعلم الفصحى اكثر مما يعانونه من تعلم لغة اجنبية . في حالة كهذه يركد الفكر عوضاً عن ان ينشط ، وهذه قضية تربوية على غاية من الخطورة .

(ب) تقيد الفصحى باحكام شديدة

واللغة لا تقيد ، غير ان منزلة العربية قشت ان يسيط حوطها بسياج من الاحكام والقواعد الشديدة . وشأن العربية في هذا شأن كل لغة اخرى يحرص أهلوها على حفظها من التجزؤ والتفكك . ولكن ما يؤسف له حقاً ، من جهة

(١) يظن بعض الناس خطأ ان عريبتنا الفصحى اليوم هي غير الفصحى لعهد الاميين . وهذا وهم فان العربية الفصحى التي نعلمنها ابناءنا لا تختلف ، وهرا وتركيبها عن عربية الاميين حتى والماهليين . ولا اعتبار للمفردات فان المفردات تهرم وتموت ويقوم مقامها اخرى . جوهر اللغة التركيب وهذا لم يتبدل اطلاقاً .

التطور اللغوي، ان يتم ضبط اللغة العربية في احكام مرهقة في زمن بلغ فيه نموها اشدّه، وفي زمن قريب الى البداوة، واكثر ما تكون اللغة اندفاعاً وحيوية ابان نموها وقربها من البداوة. ونحن لا نشك في انه لو دُوّنت احكامها في اعصر تالية لما كانت تتصف بهذه الشدة والقسوة في الاحكام. وقد تأثر قدامي اللغويين باصول المنطق الاغريقي، وخاصة بفلسفة ارسطو اللغوية. فانه - ارسطو - كان يرى ان للغته تركيباً خاصاً، وهذا التركيب هو المنطق السليم. فراح يضع للغته صرفاً فلسفياً (Philosophical Grammar) مبنياً على العلة والمعلول، والعامل والمعمول، والتقدير والاضمار والافتراض، وعوازٍ للكلمة اثراً سحرياً في الكلمة اخرى. وانت اذا درست فلسفة النحو العربي وجدت انه لا يخرج بجوهره عن فلسفة ارسطو في اللغة. فالتركيب هو المنطق السليم، ولكل علة معلول، ولكل عامل معمول، ناهيك عن التقدير والاضمار. وحاول لغويو العرب ان يوجدوا ناماًوساً عاماً لجميع المظاهر اللغوية. وحاولوا ان يجدوا منطقاً للغة. ولكن ليس للغة منطق، ولا تخضع اللغة لقاعدة عامة، ومن هنا كانت الصعوبة في وضع الاحكام، ومن هنا نشأت القواعد الفرعية والاستثناءات والشواذ مما فتح باباً للاجتهاد والتأويل، واحياناً للخصوصية العنيفة كما وقع لمدرستي الكوفة والبصرة^(١). ولا نزال الى يومنا هذا نؤلف كتبنا لتيسير النحو وتقريره الى افهام الناس ولا اظننا قد افلحنا. اعتبر عنوانين كتب النحو: احياء النحو، النحو الواضح، الشافي، الكافي، التقرير، التسهيل، والتوضيح وحاشية فلان على كتاب فلان. جاء في بيت للفرزدق في قصيدة من قصائده مخالفة نحوية احدثت مشكلة عند اهل اللغة:

وغض زمان يا بن مروان لم يدع
 من المال الا مسحتا او مجلف (عوضاً عن مجلفاً).

فسأله يوماً ابن ابي اسحق: علام رفتت مجلف؟ فقال على ما يسوقك

(١) احسن مثال على هذه الخصومة كتاب الانصاف في مسائل الخلاف بين التحويين البصريين والковفيين لعبد الرحمن الانباري

وينوؤك. علينا ان نقول وعليكم ان تتأولوا». وقد جاء في كتاب الشعر والشعراء (ص ٢٧٦) لابن قتيبة: «رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة واتعب اهل الاعراب في طلب الحيلة فقالوا واكثروا ولم يأتوا فيه بشيء يرضي. ومن ذا يخفى عليه من اهل النظر ان كل ما اتوا به احتيال وتمويه». وجاء في نزهة الالباء في طبقات الادباء (ص ٣٨٨): «سأل يوما عضد الدولة فناخسرو البويهي الامام ابا علي الفارسي لماذا ينصب المستثنى في نحو قام القوم الا زيدا. فقال بتقدير استثنى زيدا. فقال عضد الدولة: لم قدرت استثنى؟ هلا قدرت امتنع زيد فرفعت؟ فلم يحر جوابا». افتعجب بعد ان قيل لك ان الفراء مات وفي قلبه شيء من « حتى » وان سيبويه مات وهو يتمنى ان يلم بحمد « التعجب » وان الكسائي مات وهو في غاية التبرم من « نعم وبئس » وان الخليل مات وهو في اشد الاستياء من باب « النداء »؟ اما ابن خالويه فقد اتاه رجل يقول: « اريد ان اتعلم من العربية ما اقيم به لساني » فقال له ابن خالويه: « انا اتعلم النحو منذ خمسين سنة فما تعلمت ما اقيم به لساني ».

تقيد اللغة باحكام مرهقة يوقف نمو اللغة. وهذه اللغة التي توقفها عن النمو قد تبقى في بطون الكتب والمراجع، ولكن لغة الناس تسير سيرها غير عابئة بالاحكام، والشاهد على صحة هذا لغتنا العامية.

(ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة (Vowels)

فإن العربية شأنها في الكتابة شأن سائر اللغات السامية التي اقتصرت في الكتابة على الحروف الصامتة مما يجعل من صورة الكلمة هيكلًا عظيمًا لا حياة له. وهذا يجعل عملية القراءة امراً عسيراً. اذ تفرض هذه الطريقة في الكتابة - كتابة الحروف الصامتة فقط - على القارئ ان يفهم اولاً ، كما قال قاسم امين ، ثم ان يقرأ قراءة صحيحة ثانية. وهذا على نقىض الغاية من القراءة. فاننا الشعب الوحيد الذي يجب ان يفهم ليقرأ ، بينما جميع شعوب الارض تقرأ فتفهم. كان يقرأ ولد على استاذه نصاً خالياً من الحركات. فاتى على كلمة

«فِسْتَكُون» فوق التلميذ امام هذا الهيكل العظمي الميت حائراً لا يدرى كيف يتلفظ به «Fstkw» وبعد محاولات عدة قرأها «فِسْتَكُون» فكانت نكتة ضحكنا منها كثيراً . ولكن الطالب قرأ واحدة من الامكانيات التي تعد بالمثلث . وان كنت في شك من ذلك سل مدرستاً في الرياضيات فإنه يعطيك القاعدة الرياضية !

وقد ادرك بجمع فؤاد الاول للغة العربية خطورة هذه المشكلة من ناحيتها التربوية والفكرية والاقتصادية فوضع جائزة قدرها ألف جنيه مصرى لم يقدّم افضل اقتراح ، او لم يرسم افضل هجاء من شأنه تسهيل القراءة ، والمشكلة لا تزال قائمة .

لن ن تعرض في دراستنا هذه هذه المشكلة الخطيرة . غير اننا عالجناها في مقال نشرته مجلة الابحاث التي تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت عنوانه «حروف الهجاء العربية ، تطورها ، ومشاكلها^(١)» يحسن بالقارئ مطالعته . وتجدر بنا الاشارة ايضاً الى كتاب قيم يبحث المشكلة لعبد العزيز فهمي باشا وعنوانه «كتابة العربية بالحرف اللاتيني» فيه توضيح للمشكلة وفيه ردود المؤلف على مهاجميه الكثرون من شأنها ان تنير القارئ الذي يرغب في ان يتعرف الى مشكلة الخط العربي عن كثب .

(د) عجز العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون

وذلك لأن معظم هذه التعبيرات الجديدة والمصطلحات المحددة معنى واستعمالاً لم تكن يوماً من المعجم العربي ، ولم تكن من القضايا العلمية التي عني بها الفكر العربي . لأن الفكر العربي لأسباب وقف في التاريخ عند نقطة معينة . فمن الطبيعي ان تجد العربية نفسها الآن عاجزة عن اللحاق بالعلوم والفنون . لغة كل شعب مرأة حياته وبيئته . فان لغة الاسكيمو الفقيرة بمفرداتها تصلح

(١) مجلة الابحاث ، العدد الاول من المجلد الخامس س-٣٢ وقد طبع منه نسخ عديدة وزرعت على من يهمهم الامر

ان تكون اداة حسنة للتعبير عن حياة الاسكيمو وعن محیطه الجاف القاسي ، ومن يطلب من لغة الاسكيمو ، دون تعديل فيها ، ان تنقل حضارة الغرب اليوم بفکره وروحه وعلمه اما يطلب المستحيل . وكل من يعتقد ان العربية اليوم بحالها الحاضرة ، وبالنسبة الى تزمعت بعض الناطقين بها ، تستطيع بيسير ان تعبّر عن مختلف العلوم والفنون واهم .

نعم ، ان اللغة العربية غنية بمفرداتها في نواح كثيرة ، عظيمة الامكانيات في اشتقاقة وقياسها ، وقد استطاعت يوما ان تنقل اليها حضارات الشرق الادنى عن طريق الترجمة والتعریف والتوليد واحياء مفردات قديمة واسباب المعانى الجديدة عليها . ولكن تقدم العلم والفن والفلسفة في القرنين الاخرين - وفي القرنين الاخرين كنا نيااما - كان سريعا فاقتنا ولغتنا عاجزة عن التعبير عن هذه الحياة الجديدة .

لن نقف طويلا عند هذه النقطة ، ولن نحاول ان نقمع من لا يريد ان يقمع بان العربية عاجزة في وضعها الحالى عن التعبير عن الحضارة الغربية . فالادلة ميسورة ، وها هي جامعاتنا تعلم العلوم والفنون بلغة اجنبية لا لانها ترغب في ذلك كما قد يتوهם بعضهم بل لاقتناع اهل الفكر عندنا ان تعلم الطب والكيمياء والحيوان والنبات ، أمر عسير . وكل من درس علما وكل من عانى التعبير عن هذا العلم بدقة ووضوح يسلم معنا ان الامر لا يحتاج الى جدل .

لا يزيد عمر الحضارة الغربية الحديثة عن ثلاثة قرون . وهذا لا يعني ان جذورها لا تمت الى عصور بعيدة في الزمن : الى بابل واثينا وروما والاسكندرية وحرّان وبغداد . ولكن الحضارة الحديثة بعلومها ورقيمها المادي وتطورها الفلسفي من صنع اوروبا الحديثة . في هذه الفترة من الزمن لم تتح لنا فرصة للاسهام في هذا الخلق الحضاري . ونحن لا نأخذ بقول الغلاة فيما بيننا الذين يدعّون بان حضارة الغرب من الشرق ، وان كل علم وفن مردّه الى نشاط

العرب في العصور المتوسطة. لا شك في انهم اشتركوا في هذه العملية ، ولكن نشاطهم توقف عند زمن معين. ولا يعنينا الآن تعين السبب في توقفهم عند هذا الحد بقدر ما يعنينا ان نقرر اننا كأمة عربية في العصر الحديث لم نشرك اشتراكا فعليا في خلق الحضارة الحديثة لأننا كنا في شبه سبات. ومن لم يسمهم في الاختراع والاكتشاف والابتكار فإنه سيجد عقبات في التعبير عنها. عليه ان يقتبس ويولد ويلين لغته لتصبح اداة طيبة للتعبير عن الصور المادية والروحية التي تخloo لغته منها. للأوروبيين معن لغوي لا يناسب هو اللغة الاغريقية واللاتينية. وهذا الشعban اسها في خلق الحضارة العالمية. وكانت لغتها مرنة لينة استطاعت ان تعبر عن هذا الخلق. وبصدق ان لغات اوروبا تشترك والاغريقية واللاتينية في كثير من المميزات اللغوية ، الامر الذي يجعل وضع المصطلحات امراً يسيراً. وعندما تشترك مع الامم المتحضرة في الخلق والابتكار والاكتشاف عندئذ نستطيع ان نعبر عن خلقنا بلغتنا.

ولكن لا يجوز ان تبقى العربية على ما هي عليه من هذا العجز في التعبير الى ان يخلق العلماء والفلسفه والفنانون العرب مصطلحاتهم وتعابيرهم ، لأن الحياة العصرية تتطلب منا ان نلحق بركب الحضارة. فلا ضير في الاقتباس جملة اذا تعذر وجود مرادف عربي ، فان العربية هضمت مفردات اجنبية كثيرة من اللاتينية والاغريقية والآرامية والفارسية والحبشية. وتحسن الاشارة الى نقص في العربية ، اعني عدم الدقة في تحديد المعنى ، واول ما يتطلبه العلم التحديد والوضوح. وما لا شك فيه ان العربية غنية في بعض النواحي كأن يكون للشيء الواحد عشرات ، لا بل مئات من الاسماء بينما لا تجد لفظة واحدة لأشياء تقع تحت حواسنا. خذ مثلا بسيطا من علم اللغة « Linguistics » مع العلم بان العرب اشتغلوا في هذا الحقل وبرزوا فيه ، فانك تجد صعوبة في نقل كتاب يبحث في الفونتيك (علم الصوت) او النظريات الحديثة في بسيكولوجية اللغة. وعلى ذكر « علم الصوت » نقول ان الانكليزية تفرق بين :
 . noise, acoustics, pitch, tone, resonance, intonation, phonology

وانت اذا اردت ان تتكلم عن هذه بدقة فانك لا تجد سوى لفظة «صوت». وكذلك الافرنسي يفرق علميا بين : Langue, language, parole, parler فكيف تفرق انت بينها وليس عندك سوى لغة او لسان؟

ولكننا لا نقول ان هذا العجز صفة ملزمة للغة. فانه اذا نشطت العقول وكان عندنا الجرأة فان العربية تستطيع ان تلحق بالعلوم والفنون. وجل ما نريد قوله هو ان هذا العجز عن اللحاق بالعلوم والفنون مشكلة من مشاكل العربية الأساسية.

هذه هي مشاكل العربية الأساسية وكل مشكلة تحتاج الى دراسة عميقة والى حلول عملية. ولكننا في هذا الكتاب لن نتصدى الا الى المشكلة الاولى: ازدواجية اللغة لانها ، في نظرنا اخطرها. ونحن نعلم مسبقا ان الموضوع حساس وقد يعرضنا للنقد والتسيفية.

ولكن ايمانا بان المشكلة اللغوية على جانب من الخطورة وبانها تتطلب حلاً سريعاً لانها قضية تتعلق بالفكر والحضارة. ويعيننا بان الفكر لن يحل من عقاله ليساير الحضارة ما لم يتحرر اولاً من قيود اللغة وشائكتها ، جميع هذه قد دفعتنا لمعالجة الموضوع. وفي سبيل الفكر نحن على استعداد لقبول كل نقد وتسفيه.

ما هي اللغة؟

لننجيب عن هذا السؤال، الذي يبدو بسيطاً، بتعريف جامع مانع كأن نقول: اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر او اداة للتتفاهم او وسيلة لنقل المعاني، لأن صوغ تعريف علمي شامل للغة ليس بالامر اليسير كما قد يتadar الى الذهن. غير اننا نعد القارئ الذي اعتاد الاحاطة بالامور عن طريق التعريف القصيرة اننا سنحاول في آخر هذا الفصل تعريف اللغة على الطريقة التي الفها.

وقد يبدو ترددنا في تعريف اللغة غريباً، لأن اللغة من الامور الطبيعية المألوفة التي يمارسها جميع البشر على اختلاف اجناسهم عفويًا. فانها لا تتطلب جهداً ولا تفكيراً. يستعملها الولد بيسراً، وهي عنده عملية بسيطة كالمشي والأكل والشرب والنوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام. وها نحن نتكلّم في كل حالة من حالات الحياة وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار سواء كنا نائمين او حالمين او هاذين. فلماذا نقول ان تعريفها امر شاق..

خذ هذا التعريف المكرر: «اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر» وحاول تطبيقه على واقع اللغة ثم سل نفسك: هل صحيح ان اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر، هل اللغة مجموعة اصوات؟ هل فكرة «البيت» قائمة في الاصوات التي تتألف منها اللفظة؟ بكلام آخر ما علاقة اصوات حروف الكلمة بمعناها؟ اليك المعنى قائماً في الاختبار لا في الصوت؟ عندما

نسمع لفظة «بيت»ليس الاختبار في حنایا العقل الذي يترجم الصوت الى معنى؟ ولک ان تسأل هل كل صوت هو «لغوي»؟ كلا فان هناك اصواتاً عديدة لا تدخل في نطاق الاصوات اللغوية كالاصوات الطبيعية والحيوانية وكبعض الاصوات التي تخرجها من بين الاسنان، او من الحيشوم، او من اقصى الحلق، او كالاصوات التي تحدثها بالتواءات مختلفة للسان، جميع هذه الاصوات لا تدخل في نظام الاصوات اللغوية. اذن علينا ان نحدد كلمة الصوت اللغوي. وعلماء اللغة، رغبة منهم في الدقة العلمية، يطلقون على اصوات اللغة مصطلحا علميا : فونيم (وجمعها فونئيات Phonème) اي الوحدة الصوتية للغة. ويعنون بالفونئيات بمجموعة الوحدات الصوتية التي تشكل النظام الصوتي للغة. وتتمثل الفونئيات عادة بحروف الهجاء ، ولكن حذر من ان نعتقد ان عدد الفونئيات في اللغة ينبغي ان يطابق عدد حروف الهجاء في تلك اللغة. كلا ، فقد يكون للغة ما ٢٦ او ٢٧ او ٢٨ حرفا هجائيا ولكننا اذا احصينا عدد فونئيات هذه اللغة لوجدنا انها تربو على عدد حروف الهجاء. ونمثل لك على هذا بفونيم «ث» في اللغة الانكليزية فانه عنصر من عناصر اللغة كما في thin . ولكن هذا الفونيم لا رمز له (اي لا حرف له) بل يرمزون اليه بحري th . وقل هذا في فونيم «ذ» فانه عنصر من عناصر الانكليزية كما في لفظة mother ولكن فونيم «ذ» لا رمز له (لا حرف له) بل يرمزون اليه بحروف اخرى.

وفضلا عن هذا فان علماء الفونتيك يقولون لنا ان للفونيم الواحد اکثر من لفظ واحد. قد يكون له ثلاثة الفاظ او اربعة. فان فونيم p في الكلمة speak هو غيره في اللفظ في الكلمة park . وقل هذا في فونيم ء فانه في sting غيره في teem . قد لا تستطيع اذنی او اذنك ان تمیز بين لفظ واحد آخر للفونيم الواحد ولكن الالة المسجلة والфонتيكي المجرب يستطيعان ذلك.

وما قولك في هذه الفونئيات : a e i o ؟ الا تختلف لفظا تبعا لوقوعها في كلمات مختلفة؟ هل الفونيم a في father وفي fat وفي female واحد في اللفظ ؟

ثم اعتبر الشق الثاني من التعريف: «اللغة اداة للتعبير عن الفكر». يقول لنا بعض البسيكلوجيين ان اللغة هي الفكر ذاته، او هي اساس الفكر وطريق الانسان للتفكير. ويؤكد بعضهم اننا لا نستطيع التفكير بدون كلمات. فاذا قبلنا هذا التحديد - بانها اداة للتفكير - نكون قد فصلنا الفكر عن اداة التعبير عن الفكر، وهذا ما لا يقبل به البعض. وخل عنك هذه القضية الفلسفية البسيكلوجية ولنعد الى صعيد ادنى ونسأل: اذا قبلنا هذا التحديد الا نكون قد عظمنا ملايين الناس الذين يتكلمون ولكنهم لا يعبرون عن الفكر؟ الا نكون قد حقرنا الفكر باعتبارنا كل ثرثرة تعبيراً عن الفكر؟ عندما يغضب احدنا، او عندما تنهال من فيه الشتائم والسبات، او عندما يجيء بعضاً، او عندما نتكلم لانفسنا ونخزن سائرهن في الطريق او مستلقون على فراش، هل في هذه المواقف، والتشبيه بها، تعبير عن الفكر؟ ثم انا احياناً نرغب في التعميم والتعميم والاخفاء وادانتنا في ذلك اللغة التي يقولون لنا انها لنقل الفكر او للتعبير عنه!

لا نكران ان اللغة اداة للتعبير عن الفكر احياناً، فالمحاضر يعبر عن افكاره بوساطة اللغة، والمعلم في مدرسته، والعالم في مختبره، والنائب في برلمانه، والصحافي في مكتبه، جميع هؤلاء يعبرون عن الفكر باللغة. ولكن حصر اللغة بانها اداة للتعبير عن الفكر امر بعيد عن الواقع.

وكذلك قد تكون اللغة تعبيراً عن شعور وعاطفة. وقد يكون منشؤها العاطفة والشعور لا الفكر. اللغة للغناء، للشعر، للاقاصيص، للاساطير، للخرافات، فهي بهجة ومتعة، وهي متنفس عن حزن والم. واني اعجب من الرجل القاسي الذي يحكم على المرأة بانها ثرثارة، المرأة مخلوق طبيعي وتشعر ان هذه الهبة العظيمة - اللغة - للثرثرة وللكلام في غير الموقف الرسمية. اللغة عندها شيء مستحب، والثرثرة بهجة ومتعة. وفي هذا كثير من الصحة.

الواقع ان اللغة من مجموعة اصوات، واكثر من ان تكون اداة للفكر او تعبيراً عن عاطفة. اللغة جزء من كياننا البيسيكولوجي الروحي، وهي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد، وتناول اربعة امور اساسية لنظام العملية المعقّدة:

(أ) متكلّم

(ب) مخاطب

(ج) اشياء او فكر يتكلّم عنها

(د) كلمات او مفردات (او اشارات ملامحية او يدوية) وهي مجموعة فوئيات لها في الذهن صور معينة، اي معان.

ولإيضاح هذه العملية المعقّدة نأخذ مثلاً بسيطًا لا يتبدّل إلى اذهاننا انه على شيء من التعقيد. تصور رجلاً يمشي في حقل مع ولده الصغير. يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهي فيقول لوالده: «اقطف لي يا بابا تفاحة». وقد ينزل الوالد عند طلب ولده، فيتناول تفاحة، وقد لا ينزل عند طلبه فيقول: «لا التفاح ليس لنا، للتفاح أصحاب». فلنحلّ هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية البيسيكولوجية.

تبدأ العملية بالصور المرئية، بعالم الأشياء المحيط بنا، وهو العامل المؤثر، فيشتهي الولد التفاحة وتستحيل الصورة الذهنية إلى صورة كلامية تعبيرية: «اقطف لي يا بابا تفاحة». كيف تحولت الصورة الذهنية إلى صورة صوتية؟ أين كانت هذه الكلمات في دماغ الولد؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين النطق؟ ماذا جرى؟ وكيف تم؟ ثم إن هذه الأصوات التي فاه بها الولد انتقلت إلى أذن الاب بوساطة توجّات في الهواء أولاً ثم إلى دماغه ثانياً. كيف؟ ماذا كان رد الفعل؟ كيف فهم المخاطب المخاطب؟ ماذا دار في دماغ

الوالد عند سماع الفونيات، وهل المعنى في الصوت ام ان المعنى قائم في الاختبار؟ اي ما العلاقة بين الاصوات والمعنى؟ وكيف توصل الى حكم اولا في العقل ثم استحال الحكم الى اصوات تعبيرية فقال له «نعم» او «لا». «التفاح ليس لنا»؟.

هنا يتدخل البسيكلولوجي ويقول: درس اللغة ليس من اختصاص علماء اللغة بل فرع من فروع علم البسيكلولوجيا. اللغة «تصرف رمزي Symbolic behaviour» ولا تفسر الا على اساس المؤثر ورد الفعل. هاتان العبارتان: «اقطف لي تفاحة» و«التفاح ليس لنا» رد فعل بسيكلولوجي، ولا معنى لهاتين العبارتين الا اذا فهمنا الظروف المحيطة بالوضع الذي نطق بها. ثم ان البسيكلولوجيين انفسهم، اذا سلمنا ان درس اللغة من اختصاصهم، يختلفون كثيرا فيما بينهم في تفسير هذه الظواهر. فقد كان بعضهم الى زمن قصير يعتقد بالتعليل النفسي او الروحي، اي ان هناك قوة روحية او عقلية او نفسية غير مادية تحرك الانسان. ولكن جلهم الان يعللون هذه الظواهر البسيكلولوجية على انها عمليات فيزيائية ميكانيكية: مؤثر ورد فعل وتلاويم وتصرف رمزي.

يرى القارئ بما تقدم ان اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلب فهمها فهما صحيحا اثارة اسئلة خطيرة وعلى كثير من التعقيد والغموض. اما نحن فيفهمنا من الامر تقرير الواقع: اللغة ظاهرة اجتماعية بسيكلوجية قبل ان تكون كلمات واصواتا وصرفانا ونحوها. وهذا امر هام جدا بالنسبة اليانا نحن العرب، فاللغة عندنا اداة مركبة من اصوات فكلمات فتراتيب، بينما هي في الواقع الفكر ذاته (عند بعضهم) او طريق الفكر لادراك الوجود (عند البعض الآخر) ولا كيان للغة بمعزل عن المجتمع. فان سويت ودي صوصير السويسري يقولان ان لا كيان للغة الا في ذهن الافراد.

بعد هذا الاسهاب للقارئ ان يطالعنا بتعريف اللغة فنقول:

اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة^(١)، لا صفة بيولوجية^(٢) ملزمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن . وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما ان تتفاهم وتفاعل . وباللغة فقط صار الانسان انسانا ، وباللغة فقط تطورت الحضارة وتقدم العمران وبلغ العقل الانساني ذروته . فدرس اللغة درسا علميا فلسفيا درس في الانسان وفكره .

-
- (١) اذا فصل طفل عن المجتمع فانه لن يتكلم بل ينطق باصوات غير لغوية كسائر الحيوانات . وقد يكون لها معان . وكذلك اذا نشأ طفل في محیط غير محیطه فانه يكتسب لغة القرم الذين يعايشهم
- (٢) ان اعضاء النطق كالحلق والسان والرئتين والحنجرة ، وغيرها كثیر ، ليست للنطق اولا اي ان وظيفتها الاولى هي غير النطق .

كيف نشأت اللغة؟

لا نعلم على وجه التحديد، أصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الإنسان ذاته وينتظر جسمه وعقله. إذن قضية أصل اللغة ليست قضية لغوية بحتة، ولا تدخل في نطاق علم اللغة Linguistics بل في نطاق **البيكولوجيا والأنثروبولوجيا والفلسفة**.

ان معرفتنا بتاريخ الانسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الاخير. ولكن رغم تقدم معارفنا في هذا الحقل فان أصل الانسان ونشاته من حيوان ابكم الى حيوان ناطق، من حيوان لا يعقل الى حيوان عاقل، لا يزال مكتنفا بجحب من الاسرار. ولكي نهتك هذه الحجب علينا ان نرجع الى عهود سحرية في القدم لا نعلم عنها شيئاً علماً يقينياً، والعلم لا يعترف بشيء اسمه حدس او خيال، ولا يأخذ بشيء اسمه غيبيات، الا اذا كانت افتراضات قيد البرهان.

ولكن أصل الانسان ونشأة لغته أمر يثير الخيال ويستأنف الى العقل. ونعتقد ان أصل اللغة من أقدم المشاكل الفكرية التي جاهدت عقل الانسان. فان كاتب قصة الخليقة عزازها الى الله. الله علم آدم الكلام. وقد انقسم العرب الى قسمين ازاء هذه المشكلة^(١). فقالت جماعة ان اللغة توفيقية، أي ان الله

(١) ترى نموذجاً من هذا البحث في ابن جني (ابو الفتح عثمان) في كتابه *الخصائص بباب القول* على اصل اللغة امام هي ام اصطلاح. ص ٣٩ (مطبعة الملال بالفجالة ١٢٢١) وعنه اخذ =

علمها الانسان، وقالت جماعة انها اصطلاحية توافقية. وكان هم علماء اللغة، منذ مطلع القرن التاسع عشر الى زمن قريب منا، ان يتوصلا الى حل هذه المشكلة. ولكنهم كانوا يدورون في حلقة مفرغة. وكثير القول فيها الى حد جعل الجمعية اللغوية الفرنسية *La Societe de Linguistique* تمنع بقانون القاء مخاضرات في هذا الموضوع، لأن هذه النظريات - وسنذكر لك نتفاً منها - لا تفسر أصل اللغة. وقد كانت الجمعية اللغوية هذه على شيء من الحق في منع الموضوع، لأنه، كما ذكرنا آنفاً، لا يدخل في نطاق علم اللغة بل هو أقرب الى الحدس والخيال. يجب أن يبحث عن أصل اللغة في نشوء التصرف او السلوك الرمزي *Symbolic behaviour*.

ولكن من قبيل العلم بالشيء لا الاخذ به يحسن بنا أن نأتي على ذكر بعض هذه النظريات، ان لم يكن لغرض سوى ان ندلل بان اللغة تنشأ من اسفل وترتقي الى أعلى ولا تهبط من علّ الى اسفل. منها:

(أ) نظرية البو - وو ^(١) *Bow - waw*

ومفادها ان أصل اللغة محاكاة أصوات طبيعية: وقد اشار العرب الى هذه النظرية بطريقة غير مباشرة عندما تكلموا في «حكاية صوت»^(٢) وقد أدى الى

= عبد الرحمن جلال الدين السيوطي في المزهر في علوم اللغة وتنوعها ص ١٧ - ٢٠ دار احياء الكتب العربية بالقاهرة.

(١) الكتب والمقالات التي تبحث اصل اللغة عديدة جداً نكتفي بذلك مقالين جامعين يلخصان للقارئ الذي لا يهمه التبسيط في الموضوع اهم ما قدم من نظريات. المقال الاول تجده في، W.B. Pillsbury and C.L. Meader: *The Psychology of Language*, P. 112 - 128.

New York and London 1928.

والمقال الثاني في:

Otto Jesperson: *Language*,

its Nature Development and Origin, P. 412 - 442

Allen and Unwin, London 1922.

(٢) ويشير اليها ابن جني في كتابه *الخصائص* المذكور آنفاً في فصل يعنونه «احساس الانفاظ اشباء المعاني». ص ٥٤٤. وعنه نقل السيوطي في كتابه *المزهر* المذكور آنفاً ص ٤٨.

وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة، في كل لغة، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والتزققة والقهقة والخفيف والخريس والخشخشة والقططقة. واننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلاً في لفظة Cuckoo وهي اسم طائر سمي بالصوت الذي يحده. وقل هذا في لفظة «مو» فانها تعني في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة. وظاهر ان التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع الى ان الهرة سميت بالصوت الذي تحدثه.

ولكن الكلمات التي يمكن ان تفسر على مبدأ نظرية البو - وو قليلة جداً. وفضلاً عن هذا فان النظرية تعجز عن ان تفسر لنا كيف استغل مبدأ «حكاية الصوت» في آلاف الكلمات التي لا نرى الان أية علاقة بين معناها وصوتها. ما العلاقة بين لفظة ابريق ومعناها؟ وما العلاقة بين لفظة المنضدة ومعناها؟ ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة ابداً العلاقة بسيكولوجية، أي من نوع قرن الأصوات بصور قائمة في العقل.

(ب) نظرية الاوصات التعجبية العاطفية Interjections

وتعرف بنظرية Pooh - pooh . ومفادة ان الكلمات الاولى التي نطق بها الانسان كانت اصواتاً تعجبية عاطفية صادرة عن دهشة او فرح او وجع او حزن او استغراب او تقرز او تأفف. ومثال هذا لفظة - تأفف - التي استعملناها نحن. عندما يتأفف الالماني يقول! Pfui! وعندما نتأفف نحن نقول - اف او اوف - وعندما نتحسر او نتلهف نقول: «وي» وهي لفظة ترد في جميع اللغات السامية، ويتبعد عنها عادة حرف الجر «ل» فيقال «وي ل» وعلى مر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة «ويل» كما امتزج اسم الموصول «ما» مع حرف الجر «ل» فأصبح «مال». وفي الانكليزية القديمة لفظة تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظة «ويل» وهي Wa-la .

ان ما قلناه عن النظرية الاولى ينطبق على النظرية هذه. لأنه اذا استطاعت نظرية كهذه ان تفسر بضعة الفاظ فانها تعجز عن تفسير الوف من الالفاظ

التي لا نرى كيف يمكن ان تكون في أساسها تعجبية عاطفية أو مشتقة من عناصر تعجبية عاطفية. ما علاقة لفظ الحب والبغض والولاء والغيل والحسان والانسان بالأصوات التعجبية العاطفية؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة.

(ج) نظرية محاكاة الاصوات معانيها Ding – dong

وواضعها ماكس ميلر اللغوي الشهير^(١). ومفادها ان جرس الكلمة يدل على معناها. وهي لا تختلف عن نظرية البو - بو. وقد اشار اليها العرب أيضاً بطريقة غير مباشرة عندما اشاروا الى ان للحروف معانٍ^(٢). فحرف الحاء يدل على الانبساط والسعفة والراحة، وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن كما في غم وغم وغبن وغبطة. ولكن كيف نفسر لفظة غني وغنج وغلام؟

ما لا شك فيه انك اذا نظرت في كلمات عديدة يشترك فيها فونيم واحد تجد ان معانيها متقاربة. ولكن ان نرد معانى الوف الالفاظ الى ٣٥ او ٣٠ فونيا او وحدات صوتية فاننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد في غموض المشكلة. اذ لك أن تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة الى معان لا حصر لها؟ وهل المفردات العربية المدونة في «لسان العرب» مشتقة من ٢٨ فونيما؟ هذه النظرة لا تفسر أصل اللغة، بل تزيدها تعقيداً.

(د) نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية

وتعرف بنظرية hō - ھو - hê وهي المقاطع الطبيعية التي يتنفس بها الانسان عندما يستعمل اعضاء جسمه في العمل اليدوي. فكان هذه الاصوات

(١) F. Max Mueller: Lectures on the Science of Language. London 1864

(٢) والافضل ان ينظر في المقطع، لا في الحرف، كما فعل الاب ا.س. مرمرجي في كتابيه: معجميات عربية - سامية - جونية ١٩٥٠ - والثانية.

التي يخرجها عفويًا عند القيام بعمل عضلي عنيف تخفف شيئاً من خدة العمل. ومن هذا القبيل أغنية المجدفين على نهر الفولغا. وانت اذا وقفت الى جانب عامل يقطع صخراً او شجرة ، او اذا راقت حداداً او مجدفاً او رجلاً يرفع حلاً فانك تسمع أصواتاً ترافق حركاته. وفي الحداء وفي الرقص الایقاعي تسمع أصواتاً تتلاءم والحركات الجسمية.

ولكن هذه النظرية أيضاً تفسر جزءاً يسيراً من اللغة، ويبقى السر العميق: كيف نشأت اللغة من هذه الاصوات العفوية التعبيرية التي ترافق حركات الجسم؟ ما علاقة لفظ الاب والام والحنان والجمل والجهال وهذه الاصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية؟ ليس هنالك من علاقة ظاهرة.

(هـ) نظرية الاشارات الصوتية

وللسэр ریشارد باجت ^(١) Paget نظرية جديدة لم تلاق قبولاً. ومقادها ان الكلمات هي اشارات صوتية Verbal gestures . يقول باجت ان الانسان القدم كان يتفهم بالاشارة - الاشارة باليد والاشاره بتقلص عضلات الوجه - ولكن عندما صار يستخدم يديه لأمور اخرى اصبح يشير الى الاشياء باصوات. واما ساعد الانسان على ترك الاشارة اليدوية والملاحية والاستعاضة عنها باشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلاً. ففي النهار يرى الانسان صاحبه ويستطيع ان يقوم باشارات يدوية ترى ، ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام؟ عند ذاك بدأ الانسان بالتعبير عن الاشياء باصوات ، وهذه الاصوات في الفم تحاكي الاشياء المعبر عنها. وتعرف نظريته بنظرية ta - ta اي انك عوضاً عن ان تشير الى شيء بيده تشير اليه بسانك فتقول ta - ta .

ويستطيع القارئ ان يرى لنفسه وجه التكلف في هذه النظرية التي لا تفسر اصل اللغة ، ولكن حاس صاحبها دفعه لكتابه كتاب ضخم في الموضوع.

Sir Richard Paget: Human Speech. London and New York, 1930. (١)

(و) معرفة اصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة

عندما حلت رموز اللغات القديمة - السومرية، البابلية، المصرية، الخثية، الكريتية - وعندما تعرف علماء اللغة الى اللغات المتأخرة كلغات هنود الحمر والزنج واهل اوستراليا الاصليين، نقول، عند الكشف عن هذه اللغات ظنوا وهما ان في دراسة هذه اللغات ما قد يجلو الغموض الذي يكتنف اصل اللغة. وسبب الوهم ظنهم ان هذه اللغات بدائية وقديمة، اذن قد يكون فيها عناصر «طبق الاصل» للغة الانسان القديمة. ولكن الواقع ان هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة، بل حديثة نسبة الى عمر اللغة. فقد اثبتت الدراسات الفيولوجية لهذه اللغات ان وراء كل لغة منها تاريخاً مديداً لا يعلم له بدء، وانها ليست بدائية في صرفها ونحوها واساليبها، بل هي نتيجة تطور وتغيير مستمرین. وقد وصلت اليها هذه اللغات تامة التركيب وليس فيها ما يدل على بدائية. اللغة قديمة جداً. يظن ان الانسان بدأ يتكلم منذ مئة الف سنة، وهذه اللغات، وان اعتبرناها وهما قديمة او بدائية، فان وراءها عشرات الالوف من السنين كانت فيه عرضة للتغيير والتتطور.

وقد وقع علماء اللغة في القرن التاسع عشر في وهم آخر فاضح، وهو ان اللغات التي اعتبروها قديمة او بدائية بسيطة في تركيبها، اذن هي اقرب الى الاصل على اعتبار البساطة من مميزات اللغات القديمة البدائية.

كان استاذنا ادورد سابير Sapir، احد اعلام علم اللغة، واحد الثقات في لغات هنود الحمر، يقص علينا الكثير من الطرائف في لغات هنود اميركا. كان يؤكّد لنا هذه النقطة: كلما رجعنا الى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد وعدم منطق، وكلما تقدمنا نحو الاعصر الاخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق. يقول ان في لغة قبيلة يانا (Yana) في كاليفورنيا نوعين من المفردات ونوعين من التركيب: واحد للنساء وآخر للرجال. أي ان لفظة بيت تكون كلمة مغايرة في لغة النساء للفظة بيت

في لغة الرجال. وهناك لغات لا تعرف لفظا واحدا عاما لفكرة عامة، ولا تستطيع التجريد. فاننا نقول اكل خبزاً واكل لحماً واكل عنباً، اما عندهم فلكل نوع من الاكل لفظ خاص. فعل اكل في «أكل عنبا» هو غيره في «أكل موزا». ولا يقف الامر عند هذه الغرائب بل نجد ان الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل يأكل.

ان بقایا هذا التعقيد وبقایا عدم المنطق لا تزال ظاهرة في لغاتنا الحية. خذ التأثيث مثلاً، فان الانسان القديم كان يؤثر المفردات بلفظ مغاير للفظ المذكر. ففي العربية نقول:

رجل: امرأة

خروف: نعجة

تيس: عنزة

حصان: فرس

اسد: لبؤة

ولكن بعد زمن بدأ التأثيث الصري يجد مدخلا الى اللغة وأصبحنا نقول:

لطيف: لطيفة

كبير: كبيرة

مؤمن: مؤمنة

واليك مثلاً آخر على انعدام المنطق في اللغة: تذكير العدد مع المؤنث وتأثيره مع المذكر. نقول ثلاثة نساء وثلاثة رجال. اين البساطة وain المنطق؟ ولكن ماذا حدث على مر الايام؟ نقول اليوم «ثلاث نسوان وتلات رجال».

نعود الى نظرية معرفة اصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القدمية البدائية فنقول ان دراسة هذه اللغات أثبتت اولا انها ليست قدمية جدا كما توهمنا، وليس بدائية كما احببناها ان تكون، فلم تسعفنا في الوصول الى معرفة الاصل بل اننا لا نزال في الظللام.

(ز) دراسة لغة الاطفال

واخيرا ، بفضل تقدم العلوم التربوية والبيكولوجية ، اتجه هم بعض الباحثين في نشأة اللغة الى دراسة لغة الطفل من مراقبة نحو اعضاء النطق واخراج الاصوات وكيف تكتسب الاصوات معانٍ في الذهن . ولكن دراسة لغة الطفل لم تقدمنا خطوة نحو حل المشكلة : كيف نشأت اللغة . وذلك لاسباب عديدة منها ان الطفل لا يعيد تاريخ نشأة اللغة ، لأن اللغة مكتسبة لا وراثية . فإنه اذا فصل طفل هندي او عربي او ياباني عن محيطه في يومه الاول ووضع في محيط آخر ، كان نضعه في برلين او موسكو ، فإنه ينشأ على لغة المانيا او روسيا . ثم ان اعضاء النطق في الانسان ليست اصلا للنطق . فإنه كان يوم لم تكن فيه لغة ، وهذه الاعضاء الجسمية التي نسميها اعضاء النطق هي لاغراض جسمية اولا ثم للنطق ثانيا كاللسان والرئة والحنجرة وغيرها . هذه الاعضاء اكتسبت استعداداً ان تلين لعمليات النطق اما هي في جوهرها فلا غرض جسمية أخرى . وأهم من هذا كله ان لغة الطفل ، وعلى وجه التدقيق الكلمات الاولى التي ينطق بها - لأن ما ينطق به لا ينطبق عليه اسم لغة - ليست افعالا ولا اسماء ولا حروفانا ولا جملانا مركبة من مبتدأ وخبر اما هي اصوات بدائية لاغراض كثيرة وللتعبير عن حالات كثيرة . فقد يحدث الطفل صوتا يعني : أنا متزعج . هل من يريني ؟ وصوتا آخر يعني أنا جائع . وصوتا آخر يعني أنا أتألم من وجع . نحن نسيغ على هذه الاصوات معانٍ ، والطفل بدوره قد يقرنها بمعانٍ وحالات واستجابات ، ولكنه عندما يكبر يعلمه المجتمع ان يقول : أنا جوعان ، أنا متألم ، أنا سعيد ... الخ . فالمجتمع اذن يعطيه اللغة ، وهو يلعب دور المقلد لا المبتكر الخالق ، واذا ابتكر او خلق كلمات مثل الكلمة «^{تنّي}» في لبنان او «ان كف» فاننا لا نقبلها منه ونقول له قل «أكل» او قل «انا مبسوطاً» اذن دراسة لغة الطفل لا تلقي كثيرا من النور على السؤال الذي عنونا به الفصل : كيف نشأت اللغة ؟ وانت ترى الان لماذا لا يدخل عالم اللغة هذه القضية في عداد العلوم اللغوية بل

يتركها لعلوم أخرى كالبيكولوجيا والأنثروبولوجيا والميثولوجيا إذ إن اللغة لم تبدأ بالمنطق والفكر، إذ لم يكن هناك منطق أو فكر. علينا، ربما، ان نفتش عن نشأة اللغة في نشأة الأسطورة وتطورها إذ إن الأسطورة واللغة في مبدئها من نسيج واحد ودواتها الحياتية من معدن واحد^(١).

(١) من له رغبة في هذه النظرية الأخيرة عليه ان يراجع دراسة عالم الثاني؛

Ernest Cassirer: Sprache und Mythos (No. VI Studien der Bibliothek Warburg).

Ernest Renon: Histoire général et système comparé des langues Sémitiques, Paris.

اللغة والعرق والعقلية

وقد شغلت هذه القضية - اللغة والعرق والعقلية - بالعلماء اللغة في القرن التاسع عشر، اذ حاولوا، تحت تأثير علم الانثروبولوجيا والانثولوجيا، ان يجدوا علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك. وحاولوا ان يجدوا في اللغة، ولا سيما في تركيبها، أي في صرفها ونحوها، انعكاساً للميزات العرقية والأخلاق والمثل والنظرية الى الحياة عند الشعب الذي يتكلم هذه اللغة. والدراسات التي عنيت بطبعات الشعوب ومميزاتها المبنية على اعتبارات لغوية صرفة كثيرة العدد. وجيئنا يذكر ارنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب السامية وعقليتها وصفاتها الخلقية بناء على درس العبرية بوجه خاص^(١). واني اذكر قراءة مقال لعالم الماني يبحث الفاظاً مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية تعكس دورها عقلية الشعب الذي يتكلم تلك اللغة، ومن جملتها لفظة interessant. يقول ان هذه اللفظة الغربية لا يمكن ان تنقل الى لغة سامية، واذا نقلت فانها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغربية. ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة interessant الى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللذة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغربية. اذن لا يمكن الشعب السامي ان يكون قد اسهم

(١) وراجع رد ثيودور نولد كه عليه في مقاله الرائع اللغات السامية الذي ترجم خصيصاً لدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان: Semitic languages الطبعة الثالثة عشرة.

في خلق العلم والفلسفة والفن ، لأن أساس العلم والفلسفة والفن اللذة العقلية والشغف الروحي والرغبة الملحة في استجلاء غوامض الكون .

وكان من حرصهم على هذه الدراسات انهم حاولوا تصنيفها الى عائلات والنظر في خصائص كل منها . وقد صنفوا اللغات المعروفة الى ثلات عائلات كبرى :

- | | |
|---------------|--------------|
| Isolating | أ - الفاصلة |
| Agglutinative | ب - اللاصقة |
| Flexional | ج - المتصرفة |

فالفاصلة هي اللغة التي لا يتغير فيها شكل الكلمة (او الجذر) أبداً وقع في التركيب . اما العلاقة الصرفية وال نحوية بين كلمة واخرى في الجملة فتتوقف على موقع الكلمة في الجملة لا على تصريفها او على حالاتها الاعرابية . ولللغة الصينية هي من هذا النوع . فان الضمير أنا لا يتغير شكله ، كما هي الحال في لغتنا العربية تبعا للحالات الاعرابية والصرفية ، بل يظل على شكله الاول ، اما يتغير مركزه في الجملة ، وهذا التغيير في مركز الكلمة يدل على الحالة الاعرابية او على الوظيفة النحوية التي تقوم بها الكلمة . وايضاً حال المسألة نقول ان في لغتنا نحن يتغير الضمير «انا» الى «ت» في مثل اكلت ، ويتغير الى «ني» في مثل احبني ، ويتغير الى «ي» في مثل كتابي ، واذا أكدناه قلنا ايدي . اما في الصينية فيقال : اكل انا احب انا كتاب انا وفي حالة التأكيد انا انا .

واللغة الانكليزية تحافظ بعناصر من العائلات اللغوية الثلاث وهي فاصلة ولاصقة ومتصرفة . ومثال على ميزتها الاولى (فاصلة) هذه الكلمات الخمس التالية :

عديدة ولكل عبارة معنى مختلف عن معنى الاولى ، ولكن تبقى هذه الكلمات على شكلها ، اما يتغير موقعها في الجملة ؛

What you mean I know.

I know what you mean.

You know what I mean

What I mean you know.

...الخ

اما اللغات اللاصقة فهي التي لا يتغير فيها الجذر ابداً نستطيع ان «نلصق» به في اوله او في آخره، عناصر اخرى لخلق معانٍ مختلفة. والتركيبة هي من هذا النوع، وكذلك الانكليزية فاننا نقول:

Reason, reasonable, reasonably, unreasonable, unreasonableness

وفي جميعها لم يتغير شكل الجذر الاصلي : Reason

اما اللغات المتصرفة فهي التي يتغير فيها الجذر او تغير حركته، وقد يتزوج بعناصر أخرى ، او عناصر أخرى تمتزج به في اوله ووسطه وآخره ، وفي جميع هذه التغيرات يختلف المعنى . واحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية مثل كتب كُتب كاتب مكتوب استكتب ... الخ وقد عدوا هذا النوع من اللغات المتصرفة ارقى اللغات - ربما لأن اللغات الاوروبية متصرفه ! - وحسبوا ان ادنى اللغات هي الفاصلة ، واللغات الاوروبية متصرفه ! - وحسبوا ان ادنى اللغات هي الفاصلة ، واللغات اللاصقة هي وسط بين الطرفين . وقد قرروا الاولى ، اللغة الفاصلة ، بالمجتمع الحضاري البدائي القائم على وحدة العائلة ، وقرروا اللغة الثانية ، اللاصقة ، بتطور البداوة ، وقرروا الاخيرة ، المتصرفة ، بالحضارة الحالية الراقية .

ما لا شك فيه ان كثيراً من مفردات اللغة تعكس الى حد بعيد محيط الانسان الطبيعي ، والى حد محدود بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية . فالعربية مثلاً قد احتفظت بطبعها الصحراوي ، واثر الصحراء والعيش الصحراوي القبلي الرحلي يبدو جلياً في كثير من مفرداتها في لغتنا اليوم .

ولكن يجب الا نترسل في الاستنتاج المبني على نوعية التركيب اللغوي. فان علماء اللغة اليوم لا يجدون ان التركيب اللغوي يعكس مزايا خاصة، او انه يدل على طبائع معينة او اخلاق ومثل عليا او دنيا. خذ مثلا التركيب اللغوي الذي يدل على الملكية (وهو في علم النحو الاصافة) فنحن العرب نعبر عن ملكية خالد لكتاب بقولنا : «كتاب خالد» وعندما يسمع العربي هذه العبارة يفهم طبيعة العلاقة بين الكتاب المحكى عنه وخالد. والانكليزي يعبر عنها بقوله :

The book of Khalid Khalid's book

ويعبر عنها الالماني بقوله : Das buch des Khalids

ويعبر عنها الافرنسي بقوله : Le livre de Khalid

وانت ترى ان الغاية قد تمت في جميع هذه اللغات ، وهي اظهار علاقة الكتاب بخالد ، ولا اعتبار للشكل الذي لجأ اليه العربي او الانكليزي او الالماني او الافرنسي للتعبير عن الفكرة. ولا مبرر للقول بان التركيب العربي احسن من التركيب الالماني او ان التركيب الالماني يعكس عبقرية لا نجدتها في التركيب الانكليزي. جميعهم ارادوا التعبير عن شيء واحد وجميعهم نجحوا في التعبير عنه بطريقة فعالة مفهومة عند الناس الذين يتكلمون هذه اللغات المختلفة. اذن اللغة نتيجة لا سبب ، وان نعزز الى التركيب خصائص عقلية وروحية واخلاقية فأمر مبالغ فيه جدا. وعلماء اللغة اليوم لا يثقون بهذه الاستنتاجات اللغوية ، لا بل يخطئون الذين يحاولون ان يروا في اللغة وتركيبها انعكاسا للعقلية والأخلاق. فان في لغات بعض القبائل المتأخرة في الحضارة تراكيب عجيبة ومقدرة على التعبير بيسر وكفاءة تفوق أحياناً اللغة الالمانية.

والخلاصة يجب ان نفرق بين لغة وعرق وحضارة. فها هم زنوج اميركا يتكلمون الانكليزية ولا يعرفون لغة غيرها. والهنود الحمر الذين هجروا مواطنهم واخترطوا في الحياة الاميركية لا يعرفون لغة غير الانكليزية. ولو

كان للغة خصائص عرقية معينة لا تلائم الا عرقاً خاصاً أو عقلية خاصة او حضارة خاصة، لما وجدنا ان اللغة الواحدة قد تكون مشاعاً لاعراق عديدة واداة لحضارات مختلفة.

ليس هناك من لغة لها عبقرية تفوق اللغات الاخرى ، وليس هناك من عرق صاف خلق لغة خاصة تعكس عقليته . وكل ادعاء بان هذه اللغة او تلك احسن اللغات وأفضل اللغات واغنى اللغات واشرف اللغات هو من باب المبالغة . اللغة شيء والحضارة شيء آخر ، واللغة شيء والعرق شيء آخر ويجب الا الخلط بينها .

علم اللغة (Linguistics)

ليس علم اللغة بمفهومه الحديث درس الصرف والنحو والبيان كما يدرس في المدارس الثانوية والمدارس العليا. هذا الدرس هو الجزء الميكانيكي من علم اللغة. ولا يعني علم اللغة بلغة واحدة بل يدرس اللغة بصورة عامة على أنها ظاهرة انسانية اجتماعية بسيكولوجية، أو هو جزء من درس المواصلات. وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهنا اللغوي والفلسفى لأنه علم له أوثق العلاقتين بالفكرة: الفلسفة والدين والأدب والعلم والفن. بكلام آخر اللغة أساس جميع العلوم الإنسانية، وهي طريق الإنسان لفهم الكون والحياة.

ولكن ما يؤسف له أن يظل هذا العلم الحديث أمراً مجهولاً عند عامة المتآدبين وموضع استهزاء عند عامة الناس الذين ينظرون إلى اللغة وعلمها أنها من الدراسات الفارغة التي لا علاقة لها بواقع الحياة، أو أنها من جملة هذه الكماليات التي تتلهى بها العقول الخامدة. ولكن ما يسرّ له هو أن بعض الجامعات العربية (وأخص بالذكر منها المصرية) بدأت تنشئ له (علم اللغة) الدوائر وترسل البعثات إلى الغرب للتخصص في هذه الدراسات.

وقد يسأل أحدها: هل تخضع اللغة للعلم، للعلم التجاري التطبيقي كما تخضع له عناصر الطبيعة القابلة لكم وللكيف؟ والجواب عن هذا هو أن علماء اللغة في ربع القرن الأخير حاولوا مخلصين أخضاع اللغة للعلم وقوانينه كما حاول، ويحاول، علماء الاجتماع أخضاع الظواهر الاجتماعية للعلم. وذلك لأن اللغة

ظاهرة بيولوجية اجتماعية بسيكولوجية ، والاسلوب العلمي يطبق في هذه العلوم جميعها فما الذي يمنع من تطبيق الاسلوب العلمي على اللغة على اساس انها شيء يوصف ويحد ويقييد ويختصر للمختبر ؟

وقد يعرض احدنا : ان اللغة ظاهرة اجتماعية لا تلين لاحكام العلم الصارمة لانها في جريان او اندفاع مستمر (Continuous flux) وفي تغير دائم . وكل ظاهرة حية متطرفة متغيرة تأبى التقييد . انا نحن نقيد جميع ظواهر الكون عند استقرارها وثبتتها . وفي هذا الاعتراض شيء من الصحة . ولذا يقول علماء اللغة اليوم ان وظيفة عالم اللغة هي في المرتبة الاولى الوصف (Description) . فانهم ينظرون الى اللغة على انها لغة الساعة التي يصفونها بها او على انها لغة القرن الرابع او الخامس او التاسع عشر . وهذا الوصف الدقيق للغة في نقطة معينة من الزمان والمكان هو العلم ذاته .

ما هو هذا الاسلوب العلمي الذي اكترنا الكلام عنه ؟ ان هذا الاسلوب يتطلب قبل كل شيء موضوعية (Objectivity) أي تجرداً عن الذاتية ، تجرداً عن كل غرض وهو سابق معرفة ، والبدء باللحاظة والمراقبة وتدوين هذه الملاحظات . وبعد ان يتجمع لدى الدارس مقدار كاف من المعلومات (Data) يضع نظرية مؤقتة يظن انها تستطيع تفسير هذه الظواهر التي لاحظها او دوّنها . ثم انه في الطور الثاني يتقدم لامتحان هذه النظرية ليرى اذا كانت شاملة تعلل جميع هذه الظواهر . وهنا يثابر في التجرب والاختبار حتى يتأكد من صحتها . وكثيراً ما يرى ان عليه ان يعيد النظر في صحة هذه النظرية . ولكن اذا تبين له انها تستطيع ان تعلل جميع هذه الظواهر فإنه يعلنها قانوناً او قاعدة علمية . وقد طبق هذا الاسلوب في العلوم الطبيعية اولاً و كان من نتائجه هذه الاكتشافات العلمية الباهرة التي دفعت بالانسان صعداً في الحضارة الآلية ، وفي سعيه الحثيث للوصول الى حياة افضل مادياً وروحياً . هذا الاسلوب العلمي يطبق الان في درس اللغة . وقبل وصف هذا العلم يحسن بنا ان نذكر شيئاً عن تاريخ هذا العلم .

علم اللغة تاريخ مديد يبدأ بالبراهمة والاغريق والعرب ، فان هذه الشعوب الثلاثة بربرت في العلوم اللغوية وليس لنا ان نتبسط في تاريخ علم اللغة لأن هذا يخرجنا عن الموضوع ، ولكن نرى لزاما علينا ان نقول كلمة في القرون الثلاثة الاخيرة.

القرن الثامن عشر

ويعرف في تاريخ علم اللغة بعض الفيلولوجيا الكلاسيكية والمقابلات اللغوية. وقد جهد علماء اللغة في هذا القرن ان يتوصلا الى معرفة اصل اللغة. وكانت اكثر مباحثهم اللغوية اقرب الى حقل الفلسفة منها الى حقل اللغة. وكانت خاتمة جهود هذا القرن اكتشاف اللغة السنسكريتية على يدي العالم السر وليم جونز واظهار العلاقة بين هذه اللغة وبين الاغريقية واللاتينية والانكلوستكسونية القديمة. ومن هنا كانت التسمية: اللغات الهندوجermanية او الهندواوروبية او اللغات الآرية نسبة الى اريا وهي ايران القديمة. كان هذا القرن يحقق قرن الرومنطيقية في العلوم اللغوية.

القرن التاسع عشر

ويعد هذا القرن في تاريخ علم اللغة قرن الدراسات التاريخية التطورية للغة من صرف ونحو وتركيب ودرس اسباب هذه التطورات والسعى لايجاد نواميس عامة تحكم في مصائر اللغة. في هذا القرن حاول علماء اللغات ان يجدوا في اللغة اعادة سيرة الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك. وكانت لفظة فيلولوجيا عندهم مرادفة لدراسة عقلية الشعب وحضارته. بكلام آخر كانت اللغة تدرس لغاية ولا تدرس لذاتها. اللغة مرآة تعكس روح الشعب.

وقد كان للعلوم البيولوجية في ذلك العصر اثراها في الدراسات اللغوية. يظهر لك ذلك في استعمال الكلمة «عائلة» «واللغة الام» «القرابة» «المهد الاول للغة» وجميع هذه المصطلحات وشبيهاتها مستمدۃ من علم البيولوجيا.

وكذلك تبسيط علماء اللغة في القرن التاسع عشر في دراسات معنى المفردات وتطورها في التاريخ. وأفضل شاهد على هذه الجهود قاموس اوكسفورد للغة الانكليزية ولاروس للغة الفرنسية.

وكذلك قضوا وقتاً غير قصير في الجدل حول تصنيف اللغة بالنسبة إلى باقي العلوم الاجتماعية والطبيعية: هل يدخل علم اللغة في باب علم الاجتماع، أم في باب البيسيكلوجيا، أم في باب الفلسفة؟

القرن العشرون

اما القرن العشرون فيتحقق لنا ان نسميه في تاريخ علم اللغة القرن الوصفي (Descriptive) لانه لا يعني بالناحية التطورية التاريخية ولا يعني بالناحية البيسيكلوجية بل تتركز الجهود في وصف اللغة وصفا علميا دقيقا سواء اكان ذلك من جهة الصوت (Phonology) او من جهة الشكل (Morphology) او من جهة التركيب (Syntax) ومثل مدرسة لندن، قسم الفونتيك وعلم اللغة، هذا الاتجاه احسن تمثيل. فانك اذا كنت طالبا في هذه المدرسة وشاءنك ان تعرف السبب لماذا، وكيف، ولدية غاية حدث هذا في تاريخ اللغة، ومتى حدث، لا جاك الاستاذ بقوله نحن هنا لستنا في دائرة التاريخ! لا يهمنا «لماذا»؟ ولا يعني بالأسباب والعلل لأننا لا نعرف الأسباب والعلل. لماذا رفعوا الفاعل ونصبوا المفعول به ولم يعكسوا الامر فنصبوا الفاعل ورفعوا المفعول. ولو انهم فعلوا هذا لقبلنا المنطق ذاته. يهمنا تقرير الواقع. اللغة في نظرنا هي اللغة الحاضرة، لغة الساعة التي انت فيها، وعملنا هو ان نصف هذه اللغة على مراتب^(١): مرتبة الصوت، ومرتبة الصرف، ومرتبة النحو او التركيب، ومرتبة الاسلوب والبيان، وغيرها من مراتب. وعندما يتم وصف اللغة، ومتى تجمعت

(١) مرتبة ترجمة اللفظة الغربية Level. فانك اذا نظرت في الاصوات التي تتركب منها اللفظة فان دراستك لها تكون على مرتبة الصوت، ومرتبة الصرف level On phonological level واذا نظرت في مقاطعها فانك تعني بمرتبة التركيب المقاطعي Syllabic structure ... الخ.

لدينا جميع المعلومات الأساسية. عند ذاك يتحقق لنا أن نعم ، أو ان نشير الى الاتجاه ، او ان ننظر الى التاريخ ، او ان نتفرغ الى المستقبل. نحن لا ندرس اللغة درساً حديدياً بل واقعياً.

ما هو علم اللغة وما هي مادته؟ ان علم اللغة من العلوم الحديثة التي لم تستقر بعد ولم تتخذ شكلها معيناً محدداً كما هي الحال في بقية العلوم . وقد مر هذا العلم في طورين. ففي الطور الاول كانت مواد هذا العلم تنحصر في:

General linguistics

(أ) علم اللغة العام

Comparative philology

(ب) علم المقابلات اللغوية

Historic grammar

(ج) درس التطور الصرفي والنحو

اما في الطور الثاني فقد اشتمل هذا العلم الى جانب ما ذكرنا حقولاً اخرى :

(أ) المقل الفيزيائي - البيولوجي

(ب) المقل البيسيكولوجي - الفلسفى

(ج) المقل اللغوي الصرف من جهة وصفية بحثة لا من جهة فلسفية.

اما علم اللغة العام General linguistics فيعني باللغة اطلاقاً اي انه لا يحصر همه في درس لغة واحدة بل يتناول اللغة كظاهرة انسانية اجتماعية ، فيدرس نواميسها العامة من صوت وتركيب واسلوب ، ثم ينظر في تطورها ونموها وانحلالها الى لهجات ، وينظر في اثرها في المجتمع. اما علم المقابلات اللغوية Comparative philology فيعني بمقابلة لغة باخرى للوقوف على المشترك وعلى المختلف بينهما. ويدرس التطور الصرفي والنحو كما يظهر في مقابلة صرف لغة بصرف لغة اخرى. ويحاول ان يجد في هذه المقابلات ما يلقي النور على الاسباب والعلل. واما درس التطور النحوي والصرف Historical grammar فيعني بدراسة صرف ونحو لغة ما دراسة تاريخية. وقد ينظر احياناً في الصرف

الحي (Living grammar) اي صرف اللهجات ونحوها عليه يجده في ما يفسر ما غمض في دراسته التاريخية. اما علم اللغة في الفترة الاخيرة فقد تناول كما اشرنا حقولاً ثلاثة نحب ان نقف عند كل منها قليلاً لنعرض على القارئ العربي اسلوب الدراسة الغربية الحديثة للغة.

الحقل الفيزيائي - البيولوجي

وهذه الدراسة تعنى بالاصوات اللغوية من ناحيتها الجسمانية (الفيزيولوجية) والفيزيائية (Physical) فان الصوت مجرى هوائي يبدأ في الرئتين، الى الحنجرة، الى الفم، الى مخرج الفم. ولكن هذا المجرى الهوائي في مسیره من الرئة الى الشفة يتکيف ويتحور ويتغير تبعاً لما يعترض سيره من حواجز وعقبات تضعها في سيره كل من الاوتار الصوتية، مؤخر الحنك، فاللسان، فالاسنان، فالشفتان. وتستطيع ان تدرك هذا لنفسك اذا قارنت بين التنفس العادي والنطق باصوات لغوية. فانك اذا دفعت بالهواء من رئتيك فاتحا فمك ومانعاً الاوتار الصوتية مؤخر الحنك واللسان والشفتين من ان تعرض المجرى الهوائي فلا يحدث في هذه الحالة صوت لغوي، بل يحدث ما نسميه تنفساً عادياً. ولكن هذا المجرى الهوائي ذاته اذا اعترضه معيض تغير وتحور. وعندما نقول ان في اللغة الفلانية ٢٨ او ٢٩ صوتاً لغوياناً فاننا نعني علمياً ان المجرى الهوائي من الرئة الى الشفتين يتغير ويتحور ويتغير الى ٢٨ او ٢٩ صوتاً مختلفاً.

ويلاحظ القارئ ان الحقل الفيزيائي - البيولوجي يتناول الاصوات اللغوية من ناحيتين: فيزيولوجية جسمية وتعنى بعملية التنفس ووصف اعضاء النطق، الحنجرة والاوتنار الصوتية مؤخر الحنك واللهاة والأنف واللسان والشفتين وكل عضو آخر قد يشترك بعملية النطق، وفيزيائية وتعنى بطبيعة الصوت (Acoustics) ودرس الاصوات اللغوية من هذه الناحية يعرف بعلم الفونتیک (Phonetics) وهو من الدروس التي تفرض فرضياً على كل من اراد التخصص

في علم اللغة، لانه درس اساسي. وكما ان الطبيب لا يمكنه ان يصبح طبيبا اذا لم يكن قد اتقن اولا درس الفيزيولوجيا، هكذا طالب علم اللغة لا يستطيع تعليل كثير من الظواهر اللغوية كالاعلال والادغام والاشام والامالة والتخفيم والاختلاس والتلبيين واصحاح النظم الصوتي ونشوء اللهجات اذا لم يكن له معرفة بطبيعة هذه الاصوات وبالنوميس التي تنحكم بها.

وليس طالب علم اللغة ان يكون فيزيولوجيا يتخصص في دراسة الجسم كله، وليس له ان يكون عالما فيزيائياً. انا طبيعة اللغة وطريقة النطق بها تتطلب معرفة عامة لفيزيولوجية الصوت وفيزيائيته. وقد انشأت الجامعات الكبرى دوائر خاصة لعلم الفونتيك لها اساتذتها ومخبراتها ومكاتبها. واذا قيض لك ان تزور احدى هذه الجامعات وجدت ان مختبر الفونتيك بالآلية المصورة والمسجلة واسعة اكس لا يقل تعقيداً وأهمية عن مختبر الفيزياء. ان دراسة الصوت من ناحيتها الفيزيولوجية والفيزيائية تعتبر في علم اللغة مقدمة له (Prelinguistics) مقابلة له باللغة ذاتها من حيث هي اصوات تقرن معان (Linguistics) ومقابلة لهذين الحقلين بما يسمونه الان (Metalinguistics) أي ما وراء الظاهرة الطبيعية للغة، اي علاقة اللغة بالفکر والادب والفلسفة.

العقل البيسيكلولوجي - الفلسفی

وقد المعنى الى اهمية هذا الدرس درس بسيكلولوجية اللغة، عندما بحثنا «ما هي اللغة»؟ وقد مثلنا للقارئ بجادثة الولد الذي طلب الى ابيه اقتطاف تفاحة له، وماذا دار بينهما من كلام. وقلنا ان عملية التكلم على بساطتها الظاهرة، عملية معقدة جداً تتناول الصور الذهنية التي يسببها تأثيرنا بالعالم الخارجي، والكيفية التي بها تتغير هذه الصور الذهنية الى صور صوتية تعبيرية (Verbal symbolism). وقد سألنا اسئلة عدة عما يجري في الدماغ وكيف يجري، وكيف تحضر المتكلم المفردات، وكيف يكون لهذه المفردات معان مقررة في الذهن. وهناك مشاكل بسيكلولوجية فلسفية أخرى لها علاقة وثيقة باللغة. ما

هي أقسام الكلمة؟ اتعلم ان علماء اللغة ليسوا على رأي واحد بل تختلف اجوبتهم عن هذا السؤال كثيراً (من ٢ الى ٣ الى ٧ الى ١٧). ثم ما هو تحديد الفعل؟ ما هو الاسم؟ ما هو الحرف؟ وهل التعريف القدية صحيحة دقيقة؟ وما هي وحدة الكلام، الكلمة أم الجملة؟ هل صحيح ان الجملة هي المؤلفة من مبتدأ وخبر او فعل وفاعل؟ وما قولك بجواب مفيد مثل «نعم» جواباً لمن يسألك: هل هذا هو المطعم الذي سنأكل فيه؟ هل «نعم» جملة مفيدة؟ وقد لا. نقول «نعم» بل نكتفي باشارة بالرأس او بالتغيير في الملامح او بنوع من النحنة التي تفيد ما تفيده لفظة نعم. فهل هذه من اللغة؟ البسيكلولوجي يقول نعم هي رد الفعل المؤثر خارجي. وهناك قضية المعنى (Meaning) وكيف يتكون في الذهن وكيف يقرن بمجموعات معينة من الفوئيات. ثم هناك قضية الفلسفة والمنطق: هل تصلح اللغة ان تكون اداة لها ام انها تعوق التفكير الفلسفى لأنها ظاهرة قديمة نشأت عندما لم يكن هناك فلسفة؟ وأخيراً، وهذا اعقد المسائل اللغوية، هل هناك فكر مجرد، اي هل هناك فكر او تفكير بدون كلمات؟ جرب ان تفكر واسأل نفسك: هل استطيع ان افكر او ان ادرك الامور بدون كلمات؟

ان هذه القضايا على غاية من التعقيد والغموض. واذا انت راجعت فهرس المكتبة اللغوية (اي الكتب التي تبحث علم اللغة) لوجدت العديد من المجلدات الضخمة الموزعة بين حقول الفلسفة واللغة والبيكلوجيا والتربية التي تبحث هذه القضايا... ولكننا نحن لا نعيرها شيئاً من اهتماماً. وعلماء اللغة يحاولون ان يجدوا لهذه الاسئلة اجوبة مقنعة. وترادهم في شبه تنافس علمي مع البيكلوجيين الذين يقولون ان اللغة ظاهرة بسيكلوجية اجتماعية فلسفية، اذ ان علمها يقع في علم البيكلوجيا. يقول علماء البيكلوجيا لعلماء اللغة لقد حاولتم في القرون الثلاثة الاخيرة ان تخلوا مشاكل اللغة ولم تفلحوا فاتركوها لنا الان^(١).

(١) من هذا القبيل كتاب الاستاذ كانتور J.B. Kantor: An Objective Psychology of grammar. Bloomington 1936.

الحقل اللغوي الصرف

ومن الناس من ينصرف الى درس لغة ما دراسة وصفية تقريرية دون النظر الى الملابسات الاجتماعية والفلسفية والسيكولوجية. فيحصر همه في وصف اصوات اللغة واحكام التركيب ووضع المعجم (معنى مفردات اللغة) حسب اسلوب علمي دقيق.

يفرق دارس اللغة بين «لغة قديمة» و«لغة حية». فالقديمة هي التي وصلتنا من نقطة معينة في الزمن حسب نماذج مدونة. واعتمادنا في هذه الدراسة التقليد Tradition واحسن مثال على هذا النوع من الدراسة العبرية كما تدرس في الجامعات، او السنسكريتية كما كان ينطق بها البراهمة في الالف الاول قبل المسيح. والعيب في هذه الدراسات، في نظر عالم اللغة، هو انها لا تعتمد النطق بل الكتابة، والكتابية غير النطق. الكتابة رمز النطق. اما النطق الصحيح والتركيب الصحيح فهو الشائع على السنة الناس لا المدون في الكتب. ولكن هذا لا يعني اهمال درس اللغات القديمة او الانتفاشي من قيمتها، كلاما اللغة في نظر عالم اللغة هي اللغة كما وصلت اليانا في اليوم الذي فيه ندرس تلك اللغة. اللغة الحية هي لغة الناس.

واذ فرق عالم اللغة بين قديمة وحديثة فانه لا يفرق في اسلوب الدراسة. وهذا الاسلوب، الذي تمثله مدرسة لندن احسن تمثيل، يعتمد اولا تسجيل اللغة واللهجة المنوي درسها. فيؤتي بأناس يعتقد عالم اللغة انهم خير ممثلين لتلك اللغة. فيقرأون او يقصون او يتحدثون عن امر ما على رسليم وبطريقة طبيعية. وفائدة التسجيل هو ان الباحث يستطيع ان يردد على مسمعه لغة المسجلين مرارا وتكرارا وفي اوقات تخلو له. ثم يبدأ بدرس المدون حسب ما اصطلحوا عليه بالمراتب (levels) فهناك المرتبة الصوتية Phonological level أي ضبط دقيق لنظام الاصوات اللغوية، واختلاف النطق بالاحرف المصوتة، وتسجيل اثر حرف في آخر، وما الى هذا العلم من قبيل (وهذا جزء من

فونتيك اللغة) ثم يتلو هذه المرحلة درس التركيب ويعرف بالمرتبة التركيبية Morphological level وبكلامنا العادي : صرف اللغة ونحوها . ثم يأخذ بدرس معجمية اللغة Lexical level وهناك مرتبة اخيرة Semantic level أي المرتبة المعنية التي تعنى بالمعنى وتطوره .

وتجدر بنا الاشارة الى هذا العلم عند العرب . فانهم كالم novità والاغريق بروزوا في هذا الحقل ، وذلك لمقام القرآن الكريم في حياتهم الدينية والاجتماعية . ولكن ، وهذا مما يؤسف له ، لم يعتبر لغويّو العرب اللهجات ، ولم ينظروا الى اللغة انها ظاهرة اجتماعية حية نامية متطورة ، بل اقتصرت جهودهم على درس وتدوين لهجة معينة في الزمان والمكان ، وحرصوا على ضبط احكامها وقواعدها لكي لا يجد التغيير اليها سبيلا . ولكن اللغة لا تعرف التحديد ولا تقبل بالجمود بل اللغة سيل جار Continuous flux .

اثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي

علم اللغة الحديث، كما وصفناه لك باقتضاب كلي في الفصل السابق، اثر عميق في تغيير نظرتنا الى اللغة ووظيفتها واثرها في الفرد. ويسهل بنا اياضاحاً للامر وايجازاً في البحث، ان نذكر على شكل نقاط اهم النتائج التي اسفر عنها هذا العلم، والتي كان لها نصيب في تغيير نظرتنا التقليدية القديمة:

- (أ) ليس هناك لغة افضل من لغة
- (ب) للغة مجرى
- (ج) ليس هناك لغة رديئة وآخرى جيدة
- (د) لا اعتبار للكتابة وقواعدها في علم اللغة اثما الاعتبار للفظ
- (هـ) اللغة اكثراً من فوئيات
- (و) توافق اللغة والفكر وتتفاعلها
- (ز) ان الوحدة الكلامية هي التعبير التام «الجملة»
- (ح) ليس للغة كيان بدون الانسان
- (أ) ليس هناك لغة افضل من لغة

لقد اثبت علم اللغة الحديث ان اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع

انساني. وهي ظاهرة انسانية لا علاقة لها بالآلة، ولم تهبط من عل، بل نشأت من أسفل، وتطورت بتطور الانسان ذاته، ونمّت بنمو حضارته. وليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لغة وأخرى، كأن يقول احدنا ان في الالمانية عبقرية لا نجد لها في الافرنسيّة، وفي الافرنسيّة مقدرة على التعبير لا نجد لها في التركية. لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع. ولنست القضية قضية لغة افضل من لغة بل قضية حضارة ارقى من حضارة وحياة اغنى من حياة.

وكذلك لا مفاضلة في اصوات اللغة كأن يقول احدنا ان في الايطالية اصواتا اعذب موسيقى من اصوات العربية. فالذى نعده نحن البيض عذوبة في الصوت قد يعده الهندي الاحمر قبحاً وخشنونه، وما نحسبه بياناً وفصاحة قد يرى فيه الزنجي غموضاً وتعقيداً.

ولا مبرر للقول بان مفردات لغة ما اكثر عدداً من مفردات لغة أخرى اذ قد يكون عندنا نحن البيض للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبّر عنها، بينما نجد ان الصفر او الحمر او السود من البشر لا يشعرون بان هذه الصورة الذهنية تحتاج الى لفظة خاصة بل قد يعبرون عنها بطريقة اخرى مخالفة ولكن فعالة. وقضية المفردات لا تدخل في صميم اللغة. فنحن نباهی مثلًا ان للشيء الواحد عندنا اسماء عديدة، ولل فعل الواحد افعالاً عديدة، ولكن غيرنا يرى في ذلك اسرافاً. والمفردات تهرم وقوت ويحمل محلها مفردات اخرى. وقد تقتبس اللغة مفردات حضارة أخرى ارقى. وهنا نكرر القول ان القضية ليست قضية شعب راق او شعب متاخر، لانه عندما يرتقي الشعب ويتحرر افراد المجتمع من قيود الرجعية والتقليد تستطيع كل لغة ان تساير الحضارة بلسانها الخاص. قد يجد المجتمع نفسه مضطراً للتوليد والترجمة والاقتباس، ولكن هذا لا يضر اللغة بل يزيدها غنى.

(ب) للغة مجرى

لكل لغة مجرى تجري فيه حتماً. وهذا المجرى يتشعب الى مجرى اخرى مختلفة. وكلما بعد المجرى عن نقطة الانطلاق ازداد التباين والتغاير. من من عامة الناس يصدق ان الارمنية والايرانية والروسية والالمانية والارلندية واليونانية واللاتينية والانكليزية، على ما بينها من تباين واختلاف ظاهرين في المفردات وفي الصرف والنحو والاصوات واساليب التعبير، نقول من من الناس يصدق ان هذه اللغات تمثل مجرى متشعب من مجرى واحد؟ وقل مثل هذا في اللغات السامية، فان العربية والعبرية والبابلية والفينيقية والسريانية والحبشية تمثل مجرى متشعب من مجرى واحد. ولا يقف الامر عند هذا الحد بل ان هذه المجرى تتشعب بدورها الى مجرى جديدة. فمن اللاتينية تحدرت لغات حية هي الفرنسية والايطالية والاسبانية والرومانية، وهذه بدورها ستنحل الى لهجات متعددة يموت بعضها باخلال المجتمع ويعيش بعضها الآخر بتسلكه ونموه.

فاللغة تشبه تلك الشجرة التي تتدلى فروعها الى اسفل فتلامس التربة وترسل في الارض جذوراً تصبح اشجاراً فتية فيها بعد. وقد تموت الشجرة الاcem ولكن من فروعها تنشأ اشجار جديدة. واذا قلنا ان اللغة تموت فانما نقصد بالموت التغير الكلى الذي يطرأ على المجتمع، والتبدل الجذري في الحياة وفي الظروف المحيطة بالحياة الى حد نستطيع فيه القول ان لغة اليوم مغایرة لغة امس.

قد نستطيع بيسراً ان نطيل حياة لغة ما باقامة سياج حوطها من احكام شديدة وقوانين ثابتة، وقد نقيم حوطها هالة من التقديس، وقد نضفي على ادبها مسحة من القدسية، وجميع هذه تطيل في حياتها، ولكن لا مفر من المحتوم: الموت. وكل حي يموت، وللغة حية فهي خاضعة لهذا الناموس.ليس في عربيتنا الفصحى اليوم كثير من الممات؟

(ج) ليس هناك لغة رديئة وآخرى جيدة

ولست ادرى كيف سيقبل العرب هذه النتيجة التي اسفر عنها علم اللغة الحديث. فاننا قد اعتدنا ان نعتبر الفصحى لغة جيدة والعامية لغة رديئة. وكذلك اعتدنا ان نخترم «السلطة العليا» في اللغة فنقول: قال فلان وورد في شعر فلان. ولكن علم اللغة يقول لا سلطة عليا الا للناس، وما ي قوله الناس هو الصحيح. واذا كان صرف العامية ونحوها مختلفان عن صرف الفصحى ونحوها فليس معنى هذا ان العامية خطأ او لغة رديئة. هي خطأ بالنسبة الى الفصحى وليس بالنسبة الى ما يقوله الناس.

اللغة الجيدة هي التي تقوم بوظيفتها على اكمل وجه ان في الفهم والافهام، او في التعبير عن دواخل الناس بيسر وبدون اجهاد. ويعتبر علم اللغة كل كلام يخالف ما عليه الجمهور الشذوذ بعينه. وليس معنى هذا ان لا اعتبار للغات الكلاسيكية القديمة، او ان ليس لها قيمة، بل الامر على عكس هذا، اثنا تعتبر هذه القضايا قضايا تاريخية لها او ثق الصلة بتاريخ الشعب وبتاريخ لغته. ولكن اللغة الحية هي التي وصلت في مجرىها الطبيعي الى النقطة التي نحن فيها، وكما هي في النقطة التي نحن فيها هي اللغة الصحيحة. فلو ان متحدلقا في مقهى ما نادى: «يا غلام اجلب لي قدح ماء» بالاعراب التام، ولو افترضنا ان السامعين لا يعرفون ان هناك لغة عربية فصحى معربة لكان رد الفعل عندهم: هذا الرجل لا يعرف كيف يتكلم باللغة الصحيحة اذ عليه ان يقول: «يا ولد جيبْ مَيْ» او يا ولد هات كتابة مَيْ (وفي العراق كلاس glass) مَيْ) هذا هو المألوف وهذا هو الصحيح.

ان قضية فصحى وغير فصحى لا تدخل في نطاق علم اللغة بل ينظر اليها انها مسألة تاريخية سياسية بحتة. فالالمانية التي يتكلم بها اهل ورتسبورغ، والالمانية التي يتكلم بها اهل الالزاس، والالمانية السويسرية في نظر علم اللغة لغات مستقلة قائمة بذاتها حرية بالدرس والتدوين كما تدرس اللغة

الالمانية الفصحى (لغة المسرح) التي ليست سوى لهجة لوثر التي ترجم التوراة اليها ليقرأها الناس رغم معارضة الكنيسة. وقد أعجب الالمان بهذه اللهجة المرنة السائلة القريبة الى قلوبهم فاعتبروها لغتهم الفصحى. ولو ان مترجم التوراة، لوثر، كان من الالزاس او من الغابة السوداء لاصبحت واحدة من هاتين اللهجتين لغة المانيا الادبية.

اذن ارتقاء اللهجة الى مصاف اللغات الفصحى وقف على سلطة خارجية او على ظروف خاصة. ولكن علم اللغة الحديث لا يعترف بسلطة سوى سلطة الشعب. فلا يحق لنا مثلا ان نزعم ان لغة القرن الرابع افضل من لغة القرن الثاني او السادس، ولغة الكتاب الاحمر احسن من لغة الكتاب الازرق. ما يقوله الناس، وما يكتبه الناس، هو الصحيح، وسوى هذا فقضية تاريخية سياسية دينية.

اثار جون واليس (wallis) في القرن السابع عشر مسألة الفرق بين معنى will وبين معنى shall وشدد في التفرقة. وقد تابعه صرفيون من بعده ولكن من من ملابين الناس الذين يتكلمون الانكليزية يعرف الفرق الدقيق بينهما؟ واذا تعلم هذا في الصف فهل يفرق بينها في لغته العادية اليومية؟ يقول ادورد سابير في كتابه «اللغة» ص ١٦٦ - ١٧٧ ان لفظة whom منها حرص الناس على المحافظة عليها ، في طريقها الى الموت. ويعتقد سابير ان السؤال المغلوط به من ناحية قواعد اللغة: who did you see سيكون الشائع الصحيح، وان الشكل الصحيح whom did you see سيكون موضع استغراب واستهجان بعد قليل واكثر علماء اللغة يقبلون بنظرية سابير لانه اذا كانت اللغة للفهم والافهام فان احسن لغة وافصح لغة هي التي تفهم وتُفهم بايسر ما يكون من الجهد .

(د) لا اعتبار للكتابة وقواعدها في اللغة، اما الاعتبار للفظ ليست الكتابة من جوهر اللغة. اللغة اقدم من الكتابة، والكتابة عرض.

اللغة مجموعة اصوات لغوية ، والكتابة رموز لهذه الاصوات شأنها في ذلك شأن رموز قطعة موسيقية . الرموز الموسيقية ليست الموسيقى . وقد تكون رموز الكتابة حروف لاتينية او عربية او هندسية شكلها اجمل من شكل الحروف الحاضرة ، فقد نرمز مثلا الى الفونم - ن - بشكله اللاتيني ⁿ او بصورته الكتابية في اللغة الصينية او بشكل هندي موضوع لا فرق في ذلك كله شرط ان يكون هذه الرموز المختلفة قيمة صوتية مصطلح عليها .

ونمثل لك على صحة هذا - من ان الكتابة عرض واللفظ جوهر - بمثال من لغتنا العربية . فمن المقرر المعروف ان كتابتنا العربية غير المشكلة اشبه به بكل عظمي للكلمة لا حياة له الى ان يسغ القارئ عليه حياة باضافة الحركات وخارج النطق الصحيح . وينطبق هذا القول ، الى حد ما ، على جميع اللغات ولكنه ظاهر الوضوح في العربية الخالية من الحروف المصوتة . خذ مثلا جملة « من علمني حرفاً صرت له عبداً » فانها مجموعة حروف صامتة لا يمكن احد الناس ان يقرأها ما لم يكن يعرف مسبقاً انها كيت وكيت في اللفظ . ويدرك القارئ هذا الأمر بوضوح اذا كتبنا الجملة بالحرف اللاتيني فانها تكون هكذا :

mn lmni hrf srt Ih 'bd

واظهر ان كتابتها لا تدل على لفظها مطلقاً ، اما يستطيع العرب قراءتها لانهم يعرفونها مسبقاً . اذن الكتابة ليست اللغة بل اصطلاح لتدوين الفاظ اللغة ، وقد يكون هذا الاصطلاح حسنا ينقل اللفظ بيسر ووضوح كما هي الحال في الحرف اللاتيني ، وقد يكون اصطلاحاً غير موفق كما هو في الكتابة الصورية ، او كما في الحرف العربي الخالي من الحركات .

ويجب ان نلاحظ ايضاً ان اللغة لا تعرف الجمود ، فهي ابداً في تغير متسم بينها الكتابة جامدة ثابتة محافظة . ولذلك نرى فرقاً عظيماً بين الكتابة واللفظ ، ذلك لأن اللفظ يتغير ولكن محافظة الانسان على شكل الكتابة يجعلها

تسكع في المؤخرة. فالانكليزي يكتب laugh ويلفظ laf ويكتب through ويلفظ thru وكذلك الافرنسي فانه يكتب mangent ils ويلفظ manj وعندما تهب طبقات الشعب مطالبة بالتبسيير هنا وفي انكلترا وفي فرنسا تصطدم برجعية عنيدة. ولكن سأأتي يوم، وهو قريب، عندما يدرك كل انسان، وليس علماء اللغة فقط، ان الكتابة عرض واللفظ جوهر. وهذه القضية، بالنسبة اليانا نحن العرب، امر يجب ان ندركه على وجهه الصحيح لأن حرفنا من اعقد مشاكل اللغة.

يأخذ علماء اللغة المعاصرون على الصرفين الكلاسيكيين مبدأ اعتبارهم الكتابة مقاييسا للغة فجاءت اكثرا قواعد الصرف والنحو في كثير من اللغات قواعد كتابة لا قواعد نطق وفهم وافهام. ولقد فات الصرفين القدماء ان المكتوب محيط ثابت وان اللغة جسم حي نام متتطور. وكل قانون مبني على المحاط الثابت يؤدي الى نتيجة محتملة: فرق شاسع بين المكتوب والمقرؤ.

الصرف يجمد اللغة ويوقفها عند حد معين ولكنه في عمله هذا يشبه رجلًا يضع سياجا من قصب في وجه دبابة من فولاذ؟

(هـ) اللغة اكثرا من فونيات

ليست اللغة مجموعة كلمات مركبة من فونيات، وليس اللغة رمزاً كتابية. هذه من اللغة، وجزء هام من اللغة، ولكن اللغة فضلاً عن هذه، حياة. فاننا عندما نتكلّم لا نتفوه بسلسلة من كلمات على نغم واحد دون احساس او شعور كآلية ميكانيكية تردد اصواتاً لا حياة لها. كلا، بل في اللغة عنصر هام هو العنصر الانساني الذي يضفي على اللغة مسحة من تأثير السحر والجمال.

هل سمعت شاعراً يلقي قصيده هو ذاته؟ خذ القصيدة ذاتها واقرأها انت لنفسك ثم أصنع الى ناظمها يقرأها فانك تجد فرقاً عظيمًا بين قراءتك ايها وبين قراءة الشاعر. الفرق في العنصر الانساني. فاننا عندما نتكلّم نرافق

كلامنا ، وبدون تكلف وتصنع ، بشيء من الاحساس والعاطفة والصوت المنخفض احياناً والقوى احياناً اخرى ، والنغم ، والنبرة ، والاشارة الخفية باليد ، وبانفعالات تظهر في ملامح الوجه . واحياناً نتكلم وكأن الجسم كله يشترك في هذه العملية . ثم اننا نخاطب الطفل بلغة وينغم يختلفان عن لغتنا ونغمينا عند كلامنا مع الرئيس والصديق او الحبيب او الخادمة . هذه الاضافات هي من صلب اللغة ولكن لا تظهر كتابة انها من اللغة . واذا كنت في شك من ذلك - من انها جزء من اللغة لا ينفصل عنها - تمثيل لك بمثلين من الحياة : المسرح وقراءة الاولاد في قاعة الدرس .

اذكر اني شاهدت رواية تمثل على مسرح من مسارح لندن اعجب بها الجمهور الى حد ان الرواية ظلت تمثل مدة سنتين . واذكر اني قبل مشاهدتي الرواية قرأتها في طبعة رخيصة ، ثمن النسخة شلن . ولا اظن اني استمتعت بقراءتها ولا اخذت بما فيها من احاديث ونكات ، من جنون وفلسفة ، من كذب وصدق ، من رياء واخلاص . ولكن شعرت شعوراً يختلف تماماً الاختلاف عندما شاهدت الرواية على المسرح . استمتعت كثيراً وضحكـت كثيراً وفكـرت كثيراً وتأثرت كثيراً ولماذا؟ ذلك لاني عندما قرأتها لم أمس العنصر الانساني ، اما على المسرح فاشخاص الرواية احياء يتكلمون وفي كلامهم حياة ، واحياناً كثيرة لم يتكلموا ، ولكن الجمهور كان يقرأ ، ويقرأ بوضوح ، ما يجول في عقولهم وقلوبهم من افكار وعاطفة . كانت عيونهم وملامح وجوههم وحركات اجسادهم تتكلم . ليست اللغة فونيـات فقط ، اللغة حـيـاة وهي العنصر الانساني .

هل دخلت غرفة درس واصغيت الى الاولاد يقرأون؟ هناك معلمون ومعلمات ادرکوا ان القراءة الفعالة هي التي يكون فيها العنصر الانساني ظاهراً قوياً مؤثراً ، فيطلب المعلم او المعلمة الى التلاميـذ ان يرفعوا الصوت هنا وان يخفضوه هناك . هنا سؤال وهناك جواب ، هنا شدة وهناك لين ، هنا فرح وهناك حزن ، هنا استعطاف وهناك طلب ، وفي جميع هذه الحالات يجب ان

يظهر المعنى بواسطة اضافة العنصر الانساني الذي لا تراه في السطر امامك. وما يؤسف له ان في مدارستنا العربية لا تزال القراءة نوعاً من الترديد الميكانيكي وعلى نعم واحد مزعج من اول الصفحة الى آخرها.

(و) توافق اللغة والفكر وتفاعلها

كثيراً ما تثار قضية وجود فكر مجرد بدون لغة او رموز. وقد تثار القضية بشكل آخر: اليس الفكر واللغة وجهين، او مظاهرین، لعملية بسيكولوجية واحدة؟ واكثر ما تثار هذه القضية في حقول المنطق والفلسفة والبيكولوجيا. وللعلماء فيها آراء مختلفة واحياناً متناقضة. وما يدعوا الى هذا الخلاف والتناقض في الرأي حرص المشتغلين بحل هذه القضية على ايجاد جواب حاسم: نعم هناك فكر مجرد بدون رموز، او لا ليس هناك فكر مجرد بدون رموز. وظاهر، الى وقتنا هذا، ان المسألة لا تتحمل الجزم سلياً او ايجاباً. فان كثيراً من الكلام لا يدخل في نطاق الفكر كما نفهم اللغة بدلولها العام. فاني عندما اقول: «نمت الليلة نوماً هائلاً»، فاني لا اعبر عن الفكر اما هو رد فعل بسيط لحالة جسمية شعرت بها. فكان اللغة مولد كهربائي ضخم يمكن استخدامه لتحريك آلات ضخمة او لتحريك «ضرابة» جرس كهربائي صغير.

الواقع هو ان مفردات اللغة ترمز الى فكر. كل لفظة تشبه «كبولاً» يتضمن فكرة او صورة ذهنية يرسخها الاختبار في العقل. فعندما نقول، في الجملة التي استشهدنا بها آنفاً، «نمت»، فانها ترمز الى حدث او فعل يعرفه الاخرون بالاختبار، وليس من الضروري ان نفسر النوم وعملية النوم. وعندما نقول «الليلة»، فانها تنقل الى السامع فكرة او صورة معينة، وكذلك عند قولنا «نوماً هائلاً». فمن هذه الجهة نجد ان جميع الفيكر او الصور الحسية والمعنوية مضمونة في مفردات اللغة. ولكن هذا لا يعني انه لا يمكن ان يكون هناك فكر او صور او حقائق في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة، او

ليست متلبسة برمز ، أي بصوت لغوي . خذ مثلاً الحقائق الرياضية والحقائق الطبيعية فان لها وجوداً ذاتياً يقطع النظر عن الرموز التي تشير اليها . ولكن يُشكك كثيراً فيما اذا كان الانسان يستطيع التفكير الرياضي ، او حل المعادلات الرياضية او فهم حقائق الطبيعة بدون رموز . فهذا ناموس الجاذبية كان موجوداً قبل ان تتلبس الفكرة برمز لها ، اي لفظة « جاذبية » وحقيقة الماء من انه مزيج من عنصرين بمعادلة معينة كانت قبل ان نضع له الرمز العلمي H_2O ، ولكن ما لا شك فيه هو ان اللغة تسهل الفكر ، او كما كان يقول استاذنا ساپير (Sapir) اللغة طريق ممهد او اخدود كالاخاديد التي تراها على سطح اسطوانة تمهد وتحدد السبيل للابرة لتمر فيه لتردد الصوت . فاللغة تسهل الفكر وتساعد على نمو الفكر . ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر في اللغة ونموها وتطورها . فالتفاعل بين اللغة والفكر امر واقع . ان ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح او غير الواضح ، ولكن هذه الفكرة المولودة جديداً لا يصبح لها كيان ذاتي ما لم تتلبس رمزاً لغوياً ، اي ما لم تُضمن الفكرة في « كبسول » لغوي . عندها نشعر ان الفكرة المولودة جديداً قد أصبحت ملكاً لنا واصبحت تشكل جزءاً من تفكيرنا .

(ز) الوحدة الكلامية هي التعبير التام (الجملة)

تشبه اللغة نظاماً هرمياً معكوساً ، أي قائماً على رأسه الاعلى . وهذا الرأس الذي يرتکز عليه المرم المعكس يمثل الاصوات في اللغة او الفونيمات . وعلى الفونيمات تقوم مركبات الفونيمات اي الكلمات ، وفوق الكلمات طبقات تصنیف الكلمات : اسماً ، ضمائر افعال ... الخ . ثم تأتي الجملة فوق طبقة الكلمات . الوحدة الكلامية هي التعبير التام الجميل . ومن هنا كان اختلاف علماء اللغة في اقسام الكلمة ، فمن قائل هي ثلاثة او اربعة او ستة او اكثر .

ان هذا التحليل من صنع الفلسفه . واول من قام بهذا التحليل الذي يشبه المرم المعكس الاغريق والهنود . ولكن الانسان القديم الذي لا يميل الى

الفلسفة يعتبر التعبير التام الوحدة الكلامية، فلا تجزئة ولا تحريد. اللغة استمرار (Continuum). وفي كثير من اللغات لا تستطيع ان تجزئ الكلمة او العبارة الى عناصرها بل هي وحدة لا تتجرأ. يستشهد الاستاذ ساير^(١) بكلمة واحدة من احدى لغات الهنود الحمر:

Wii - to - Kuchum - punku - rugani - yugwi - va - ntu - m

ومعناها: هؤلاء الذين سيجلسون لتقطيع بقرة سوداء بالسكاكين. وتحليل هذه الكلمة الى العناصر التي تتألف منها امر لا يخطر للهنود الحمر ببال. الجملة المفيدة عندهم تعبير غير قابل للتجزؤ. اما نحن الذين نعني بدرس اللغة درسا تحليليا نقسم اللغة الى طبقات. ولكن اللغة في واقعها الاجتماعي وحدة تعبيرية لا تقبل التجزئة.

ليعتبر القارئ ماذا يترب على هذه النظرة من وجوب اجراء انقلاب اساسي في طريقة تدريس اللغة. يجب ان يكون التوكيد على الجملة، على التعبير التام المفيد. هذا هو الوحدة اللغوية لا الفونيم او مركبات الفونيم.

(ح) ليس للغة كيان بدون الانسان

وهذه حقيقة لا تحتاج الى اقامة دليل، فانها اقرب الى البديهيات منها الى الامور التي تتطلب البرهان. فالبابلية، مثلا، كانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان الشرق الادنى، وكانت كتابتها محترمة متبعة في اقاليم عدة، وخلفت آثاراً كتابية تسع لوضع معجم كبير. ولكن اللغة البابلية ماتت لأن الذين كانوا يتكلمون بها انقرضوا او اندمجوا في حضارات اخرى، لأن لا كيان للغة بدون الانسان.

يترب على هذا القول نتائج بعيدة الاثر، وابعدها اثراً اعادة النظر في فلسفة النحو المبنية على فكرة العامل - العامل اللفظي والعامل المعنوي - فقالوا

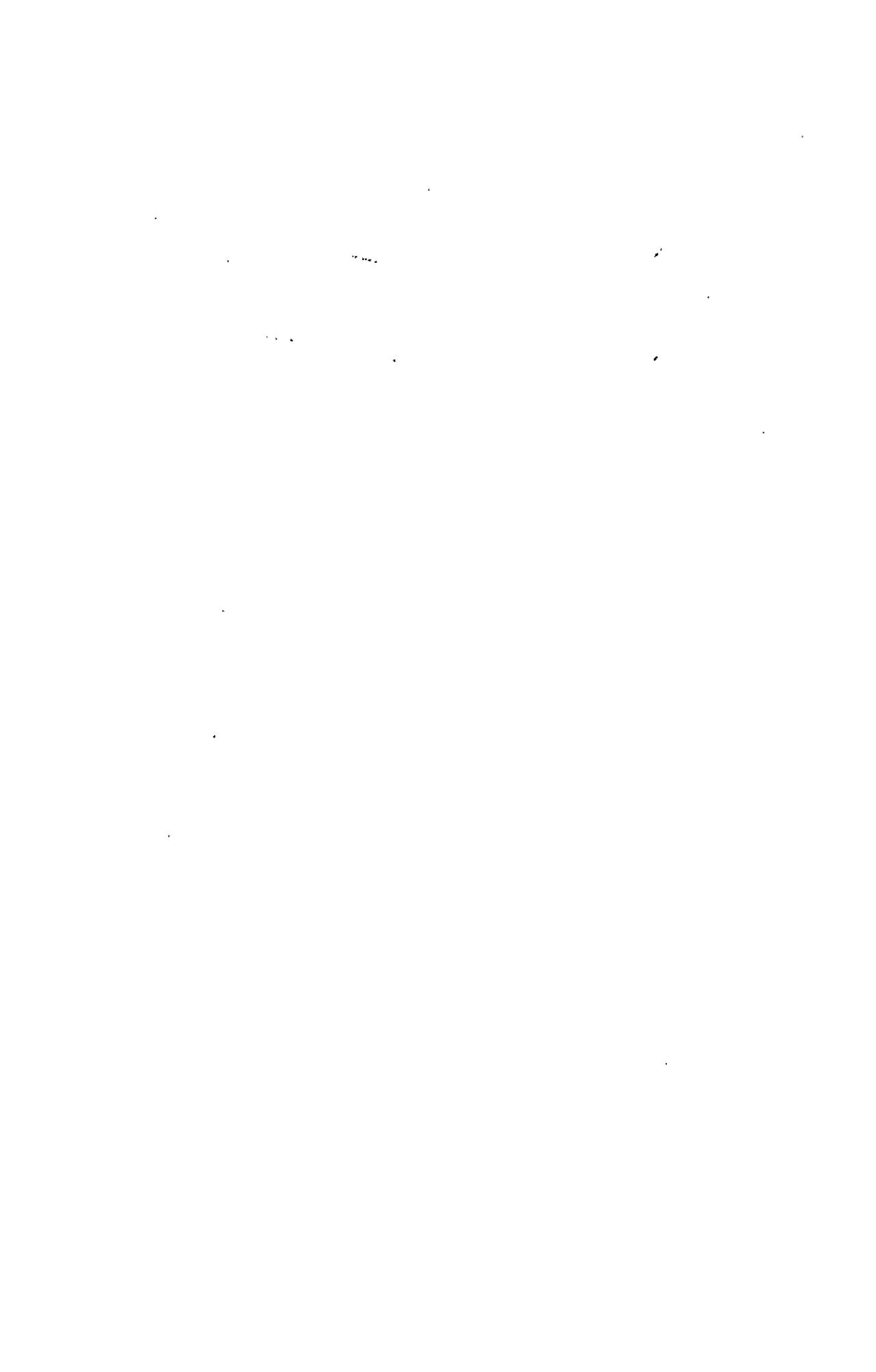
Edward Sapir: Language, p. 31. (١)

مثلاً ان سبب الاعراب العامل فالرفع والنصب والخفظ لا يكون الا بعامل، وسبب المنع من الصرف علة من العلل، وسكون لام الفعل في مثل «أكلت واكلنا» لاتصاله بضمير صحيح. بكلام آخر عزوا هذه المظاهر اللغوية لاثر كلمة في الكلمة: فان «إن» تنصب المبتدأ وترفع الخبر، وكان ترفع المبتدأ وتنصب الخبر. فكان للكلمة سحراً.

وما تجدر الاشارة اليه ان بعض الصرفيين وال نحوين لم يقبلوا بهذا المنطق فان ابن جني في «خصائصه» يقول ما معناه ان الرفع والنصب والجزم مرده الى المتكلم نفسه لا لشيء غيره، اي ان الانسان هو العامل الاول والاخير في عملية النطق. وقد ألف مفكر عربي، ابن مضاء القرطبي، كتاباً في الموضوع هذا سماه «الرد على النحاة» حاول فيه ان يدحض المنطق الذي كان يتمسك به النحاة، فانه يقول ان العامل هو الانسان ذاته. ليتصور القارئ، ماذا يتربت على هذه النظرية الصحيحة للغة في تدريس اللغة. فعوضاً عن ان نقول للتلاميذ في اعراب «العلم نافع» العلم مبتدأ مرفوع بالابداء (عامل معنوي) نقول العرب تقول هكذا ولا تعليل آخر. وفي جملة «ان الطقس جيل» الطقس منصوبية لأن العرب هكذا قالوا وكفى.

وانى اذكر بهذه المناسبة بعض ما كان ينشأ من جدل بيني وبين الاستاذ (Firth) من جامعة لندن عندما كنت احضر مجلس تعليمي Seminar فاني كنت اطلب جواباً عن «لماذا؟» «ما السبب؟»؟ فكان يجيبني الاستاذ: «السبب بسيط جداً: الانسان! وأي تعليل آخر هو حدس وتخمين او تقول في امور لا نعرف لها سبباً».

اللغة من الحياة الانسانية وللحياة الانسانية، وبدون الانسان لا كيان للغة، فان عاش عاشت وان مات مات.



القسم الثاني
في
نشأة اللهجة الأدبية والمحكية



لغة ولهجة

ما الفرق بينهما؟ وقد يعجب القارئ لهذا السؤال، فان الفرق عنده واضح ظاهر. ولكن على ضوء علم اللغة مبدئياً بين لهجة literary dialect ولغة language. كل لهجة هي لغة قائمة بذاتها ، بنظامها الصوتي وبصرفها وبنحوها وبرتكيبيها وبقدرتها على التعبير.

وقد يعرض احد الناس على هذا الزعم بقوله ان الفرق بين لهجة ولغة هو في الأدب. اللغة هي التي لها أدب. أي ان الأدب مقياس للتفرقة. وهذا الزعم مردود ، فان لهجات الزنوج والهنود الحمر ولهجات الاقوام المتعددة لها أدبها : شعرها ونثرها وقصصها وأمثالها وأساطيرها وأغانيها . وقد يختلف هذا الأدب في غناه الروحي والعقلي والجمالي عن آداب الشعوب التي خطت خطوات واسعة في عالم الفكر والفن والفلسفة والعلم ، ولكن ذلك راجع لأثر الحضارة في الإجتماع. هذه الاقوام التي تتكلم لهجات لا يروق أدبها لنا اذا أتيح لها ان تأخذ بقسط من الحضارة فان هذه الأداب تتغير في روحها ومادتها وشكلها.

وقد يقول آخر : اللغة هي التي تغير لغة أخرى بأصواتها وبفرداتها وبرتكيبيها مغایرة لا يستطيع معها ان يتفهم زيد وعمرو. أما اذا كانت الفروقات في الاوصوات والمفردات والتركيب من النوع الذي يمكن فيه التفاهم بين الجماعات فان هذه تمحض لهجات. اي ، بكلام آخر ، يضع صاحبنا التفاهم

مقاييس للتفرقة بين لهجة ولغة. ولكن هذا الزعم يسقط من تلقاء نفسه اذا اعتبرنا مثلاً لهجة أهل البندقية ولهجة أهل صقلية، فانها لهجتان (لا لغتان) ايطاليتان، ولكن اهل البندقية لا يفهمون اهل صقلية ولا اهل صقلية يفهمون اهل البندقية. التفاهم بينهما غير ممكن. وقلل مثل هذا في اللهجات الرومانية اي الايطالية والفرنسية والإسبانية فاننا نسميها لغات (لا لهجات) بينما هي في الواقع التاريخي لهجات لاتينية. واذا اجتمع ايطالي يافرنسي فان التفاهم بينهما ليس مستحيلاً. والامر كذلك في اللغات الجermanية مثل الالمانية والمولندية والنروجية والدنماركية فانها تحسب لغات (لا لهجات) بينما هي في الواقع لهجات والتفاهم بين هذه الجماعات أمر ممكن. والعربية والعبرية والسريانية والحبشية لغات في نظرنا اليها، ولكن التاريخ ينظر اليها انها لهجات تحدرت من ام واحدة. اذن قضية التفاهم لا يمكن ان تكون الفارق بين لهجة ولغة.

وقد يقال لنا أخيراً ان الفارق بين لهجة ولغة هو ان اللهجة تقهر وتحاطط لغوي من لغة فصحي. وقد وقع في مثل هذا الوهم لغويو العرب قدماً وحديثاً. فانهم ينظرون الى العامية انها اخطاط وتقهر. ولكن اثبتت دراسة اللهجات، وبطريقة لا يتسرّب اليها الشك، أن اللهجة ليست تقهر ولا اخطاطاً لغويًا *linguistic degeneration* بل تطوراً وتقدماً لغويَا فرضتها النوايس الطبيعية التي تحكم بصير كل لغة. وأفضل دليل على أن اللهجات ليست اخطاطاً لغويَا هو كون بعضها سابقاً في الزمن للغة الفصحي. خذ مثلاً كسر حرف المضارع في العامية فاننا نقول «يكتب يشرب» ولكن كسر حرف المضارع (وهو لغة قديمة) سابق في الزمن للفترة التي اعتبرت فيها لغة قريش اللغة الأدبية الفصحي، فكيف يتحقق لنا ان نعتبر هذه الظاهرة - كسر حرف المضارع - اخطاطاً لغويَا؟ وما لا شك فيه ان لهجة الالمان في سويسرا والمانية الالزاس وورتمبرغ هي أسبق في الزمن من لهجة لوثر التي اعتبرت بعد ترجمة التوراة لغة ألمانيا الفصحي - او على الاقل لا علاقة لها بها - فكيف يتحقق

لنا ان نقول ان لهجة سويسرا الالمانية ولهجة الالزاس الالمانية ولهجة الغابة السوداء هي اخطاط لغوي من لغة فصحي ظهرت في التاريخ بعد ظهور تلك؟

الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن لا فارق جوهري بين لهجة ولغة إنما الفارق هو ان لهجة ما ، ولسبب خارجي ، او لظروف خاصة ، تعتبر لغة قومية رسمية ، بينما لهجة أخرى ، ربما أفضل منها ، لا يعترف بها . فلو أن التوراة الالمانية مثلا ترجمت الى لهجة برلين وكانت لهجة برلين الالمانية الفصحي لا لهجة هانوفر . اذن القضية قضية «سلطة عليا» وقضية اعتراف بهذه السلطة . ما هي هذه «السلطة العليا» التي ترفع لهجة ما الى مصاف اللغات القومية الرسمية ، والتي تهمل لهجة أخرى فتعتبر لغة رديئة؟

السلطة العليا

ان التاريخ يعج بالامثلة الناطقة على فعل السلطة العليا في رفع لهجة ما الى مرتبة لغة قومية رسمية. كما نود أن نأخذ بالتفصيل تاريخ كل لغة قومية ونبين كيف ارتفقت هذه اللغة من لهجة وضيعة إلى لغة ادبية. ولكن سرد حثائق التاريخ الجافة امر يرهق أكثر القراء، فضلا عن أنه يتضمنا جهودا نحن بغني عنها، لأن القارئ يستطيع، اذا أحب، ان يراجع تاريخ كل لغة في الموسوعات او في الكتب التي تبحث تاريخ تلك اللغات وأدابها. اثنا سنتكفي بذكر نبذ عن بعضها ايضا لما نحن بصدده.

تكون السلطة العليا في اللغة احد هذه العوامل:

(أ) عامل عسكري - سياسي

(ب) عامل ديني

(ج) عامل ادبي

(د) عامل اجتماعي طبقي

وليس من الضروري ان تكون السلطة العليا عاماً مفرداً، أي مكوناً من عامل واحد، بل قد يتداخل عاملان او ثلاثة في تكوين هذه السلطة. وسنمثل ذلك على كل من هذه العوامل.

(أ) عامل عسكري - سياسي:

وافضل مثال على ذلك اللهجات الروسية: التشكية والبلغارية والصربيّة. ان هذه لهجات روسية، ولكنها اصبحت لغات رسمية معترفا بها بفضل عامل سياسي او عسكري - سياسي. فانه عندما استيقلت هذه البلدان عن روسيا أصبحت هذه اللهجات الاقليمية لغات قومية ادبية معترفا بها.

ثم اعتبر لغة اسبانيا الادبية. ما هي؟ هي لهجة الطبقة العسكريّة التي ابلت في حروبها ضد العرب، وعني بها الجيوش القشتالية. فقد احتلت قشتالة، بفضل هذه الحروب التي شنتها على العرب، مقاما عسكريا سياسيا في بلادها غير منازع، وأصبحت لهجة قشتالة اللغة الرسمية للبلاد. والناس على دين ملوكهم. ولكنها في الاصل لهجة لاتينية يشوبها بعض عناصر لغوية محلية.

واعتبر كذلك لغة الرومان: اللاتينية. ما هي؟ هي لهجة من عشرات اللهجات التي كان يتكلم بها أهل ايطاليا القدماء قبل ظهور الرومان كامبراطورية عالمية. هي لهجة مدينة روما، وبفضل مركز روما العسكري والسياسي أصبحت لهجة روما لغة الرومان القومية الادبية، وانتشرت في العالم بفضل الانتصارات العسكرية التي احرزها الجيش الروماني.

(ب) عامل ديني:

وافضل مثال على فعل هذا العامل الديني نشوء اللغة الالمانية الفصحي واللغة العربية الفصحي. وجميعنا يعرف شيئا عن تاريخ الحركة الاصلاحية وكلنا نذكر لوثر وخروجه على الكنيسة الكاثوليكية. فقد ارتأى لوثر بان افضل سلاح يستطيع به ان يحارب الكنيسة هو ترجمة الكتاب المقدس الى لغة الناس ليقرأوه. فان اللاتينية لم تكن لغة الحياة، ولم يستطع الناس ان يقرأوا كتابهم الديني. وبما ان لوثر كان من مدينة هانوفر فانه ترجم التوراة الى لهجة مدینته متحديا بذلك سلطة الكنيسة. وقد اعجب الناس بهذه الترجمة السلسنة

القريبة الى عقولهم وقلوبهم، وعلى مر الزمن اعتبرت اللغة الفصحى. ويسمىها الانماان لغة المسرح.

وليس لنا أن نعيid على القراء خبر ارتقاء لغتنا العربية الفصحى من لهجة حجازية نجدية الى مرتبة ادبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها، لأن هذا من الامور المعروفة التي لا تحتاج الى تعليق. وللغة العربية مدينة بحياتها وباحتفاظها بشكلها القديم للقرآن.

(ج) عامل أدبي:

والامثلة على كون السلطة العليا ادبية كثيرة، شخص بالذكر منها اللغة اليونانية الكلاسيكية، لغة افلاطون وأرسطو. فان هذه اللغة كانت اصلاً لهجة اهالي اتيكا في القرن الرابع ق. م. وظلت اللغة الرسمية الى القرن التاسع بعد المسيح. وعندما انتقلت هذه اللهجة الى شواطئ آسيا الصغرى - ايونيا - اصبحت تعرف باللغة الايونية الرسمية، وهي التي كتب بها هيرودوتس. ان الذي فرض هذه اللهجة هو ما دُوّن بهذه اللهجة من أدب وعلم وفلسفة. ومن هذا القبيل لغة ايطاليا الحديثة فانها اللهجة فلورنسا، او بالاحرى اللهجة التي كتب بها ادباء وشعراء امثال دانتي وبوترارك وبوكانشيو.

(د) عامل اجتماعي او طبقي:

وأفضل مثال على ذلك اللغة الفرنسية او بالاحرى لغة باريس بعد القرن السابع عشر. فان اللهجة باريس (او مجتمع باريس) اصبحت المثال الادبي الرفيع الذي ينبغي لكل كاتب ناشيء ان يحتذيه.

ومن هذا القبيل لغة الانكليز فانها على وجه التدقير، اللهجة المحكية في المدلنذ *Midlands* وهي مزيج من انكلوسكعني قديم ولغة النورمان وما اضيف اليها من مصطلحات علمية من لغة الاغريق والرومان، وقد اصبحت

هذه اللهجة لهجة لندن^(١) والمجتمع اللندناني الرافي. وهي لهجة تعرف بـ «انكليزية الملك» ولا يغرس عن بالنا ايضاً اللغة الروسية الأدبية فائتها لغة اهل موسكو، ذلك لأن اديباً نابغاً، ليمونوسوف، كتب بها واعجبت كتابته اهل موسكو فاقتدى بها الكتبة والشعراء واصبحت فيها بعد اللغة الروسية الفصحي.

لقد ذكرنا بهذه الامثلة لنوضح ان اللهجة تصبح لغة بفضل سلطة عليا تفرضها. وتكون السلطة هذه عسكرية أو دينية أو طبقية. اما اليوم فما هي السلطة؟ في كل امة من امم الارض جماعة، وجماعة كبيرة تقول ان السلطة هي للتقليد Tradition هي للسلفية، هي لغة التاريخ، اللغة التي تحدرت اليها بشكل شعر أو نثر وقصص واغان، وكل خروج عن التقليد يعد خروجاً على الاجتماع. وأشد ما يكون الناس رجعية هو في نظرهم الى اللغة. ولذا ترى هذه الجماعة السلفية شديدة المحافظة في كل قطر. فمن ذا يجرؤ في انكلترا مثلاً ان يكتب بدلًا من Thru و laf بدلًا من laugh ومن يجرؤ في انكلترا - هذا اذا اراد ان يحافظ بمركزه الاجتماعي الادبي - ان يقول I ain't او I aren't عوضاً عن I am not؟ وقل مثل هذا في المانيا وفرنسا وفي كل بلد يعتز بلغته ويفخر بأدبها. لا نعتقد ان الفرنسي المعروف بدقة التفكير وحسن النطق، الفرنسي الذي اعطى العالم النظام المترى، يتنازل يوماً عن المعادلة $4 \times 20 + 11 = 91$ مستعيناً بها بوضع لفظ خاص للتسعين فيقول . ٩١

ولكن رغم هذه الرجعية فإن علم اللغة لا يعترف بسلطة عليا في اللغة غير سلطة الشعب. السلطة العليا هي الشعب تمثيلاً مع روح الديمقراطية، التي تتغلغل

(١) اما اليوم فان انكليزية لندن لا تعد المقياس الادبي في صفاء اللغة ان كان ذلك من جهة اللفظ ام من جهة التعبير، وذلك خليط الناس في هذه المدينة. ويجب الا ننسى المنافسة بين مدينة واخرى. فان اهالي اوكتافر وكمبريدج يعتقدون ان لفظهم هو افضل لفظ وتعبيرهم اصفي وابلغ تعبير.

في جميع نواحي الحياة. اللغة ليست لطبقة ارستقراطية، ولن تست لغة ل بلاط او
لقصر او لبرج عاجي او لمجامعة من الادباء او الشعراء ، اما اللغة للشعب ، وما
يقوله الشعب هو الصحيح .

كيف تنشأ اللهجة

اما مؤرخو العرب وصرفيوهم فقد أشاروا الى اللهجات العربية إشارات عابرة^(١)، ولكنهم لم يحاولوا الاجابة عن السؤال: كيف نشأت؟ فقد تكلم الكسائي، تلميذ الخليل عن لحن العامة (وله في الموضوع كتاب مخطوط) وذكر الماحظ كثيراً من النواذر اللغوية التي تعكس لحن العامة وعجمة بعض الناس. وتكلم ابن خلدون عن «فساد الكلمة»، «ولغة الامصار» وتكلم غيره عن «لغات فاسدة» وعن «الرطانة»، «والعجمة». ومنهم من أشار إشارات دقيقة الى لهجات وقرنوها باسماء تميزها: كشكشة أسد، وعنعنة قميم، وطمطئية حير، وعجعجة قضاعة، وفحفحة هذيل، وقطعة طيء، وغيرها كثيرة^(٢)؛ ولكن أحداً من القدماء لم يدرسها. وعلى دارس اللهجات العربية القديمة ان يبدأ بالاختلافات في القراءات المتّبعة في قراءة القرآن، وجمع التنف الباقية في ثانياً كتب الادب (ملحوظات الماحظ مثلاً) وجمع الملاحظات المعجمية، ومتى تم جمعها يتبيّن له ان الفروقات بين هذه اللهجات ليست يسيرة، بل تتناول نواحي لغوية عديدة، على الصعيد الصوتي Phonological level والصرف التحوي Syntactical والمعجمي Lexical.

(١) وقد جمع هذه الإشارات العابرة مستشرق الماني اسمه Johann Fueck في كتاب له نقله الى العربية الدكتور عبد الخليل النجار «العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب» القاهرة ١٩٥١ مطبعة دار الكتاب العربي.

(٢) المصائص لابن جني ص ٤١٠ - ٤١٢ وعنه اخذ السيوطى في المزهر ص ٢٢١ - ٢٢٦.

وحل ما يفهم من كلامهم ان اللهجات العربية هي اخطاط لغوي Linguistic degeneration . فهم من هذا القبيل يتبعون الى المدرسة التي تقول ان اللهجة اخطاط لغوي . وقد أشرنا سابقا الى فساد هذا الرأي ، وقلنا ان علم اللهجات قد اثبت بطريقة لا يتسرّب اليها الشك أنه ليس ضروري ان تكون اللهجة اخطاطا من لغة فصحي ، فقد تكون أقدم منها في الزمن ، او قد تمثل تطورا وتقديما لا اخطاطا . ولا يمكن الاخذ بالرأي القائل ان نشوء اللهجات مرده الى خروج العربية من موطنها الاصلي واحتقارها بلغات اخرى . ولو كان هذا فكيف نعمل نشوء اللهجات في البلاد العربية ذاتها حيث ظلت الفصحي على عزلتها؟ اذن علينا ان نحمل هذا الزعم وان نفتئش عن سبب نشوء اللهجة الحقيقي . ونحن نعتقد ان في مقدمة الاسباب ثلاثة عوامل :

- (أ) المغايرة الفردية .
- (ب) اتساع الرقعة الجغرافية .
- (ج) احتقار لغة بلغة اخرى .

(أ) المغايرة الفردية :

لقد اثبتت لنا علم اللغة ان لكل انسان هجته الخاصة ، وان هناك لهجات في اللغة بقدر ما هناك من افراد يتكلمون هذه اللغة ! وهذه اول مفاجأة يفاجئنا بها علماء اللغة . يقولون لنا ان المجتمع الذي يتكلم افراده لغة واحدة لا وجود له . واذا ابديت شكا في ذلك ادخلوك الى مختبر الفونتيك وقالوا لك اجلس أمام هذه الالة المسجلة وتلفظ بهذه العبارة : ما اجمل الطقس . ثم بعد ربع ساعة يقولون لك تعال سجلها لنا مرة اخرى . ثم يتربكونك تقابل بين تسجيلك الاول والثاني . وستجد لنفسك فروقا . ولكنها فروق لا تستطيع الاذن تميزها ، انا الآلة تستطيع . واذا اصررت في المعاندة ادخلوك الى غرفة مظلمة وطلبوها من صديقين لك ، لا علم لك بوجودهما هناك ، ان يتكلما .

فإنك تعرف حالاً صاحب الصوت هذا هو فلان، وصاحب الصوت ذاك هو فلان. فإن هناك تبايناً ظاهراً في اللفظ وفي الشدة واللين والنبرة والنغم وربما في انتقاء المفردات وفي تركيب العبارات.

تعرف هذه الظاهرة في اللغة بالغاية الفردية. ولا تظنن أن هذه المغایرة تعمدية، كأن يكون أحدهنا متحذلقاً أو متشدقاً أو متحرجاً في لفظه، كلاً، إنما هذه المغایرة الفردية طبيعية عفوية. ولا نعلم السبب في ذلك كما إننا لا نعلم لماذا لا تشبه جهة قمح جهة أخرى في عرمة من القمح. ولا يولد ولد يكون صورة طبق الأصل لأبيه أو لأمه. فكأن الطبيعة تكره الوحدة Uniformity وتميل إلى المغایرة. وهذه المغایرة الفردية في اللغة، جيلاً بعد جيل، تترك أثراً في اللغة. ونحن على يقين أن العرب الأحياء يقرأون الفصحي على غير ما كان يقرأها الفصحاء في العصر الاموي. أما من جهة التكلم ظاهر، أن لساننا العربي اليوم غير لسان العرب في الأمس البعيد.

اخالك تقول: إذا، حسب هذا الزعم، تتجزأ اللغة بعد جيل أو جيلين إلى لهجات لا حصر لها. كلاً. ذلك لأن هناك، مقابل هذا الميل العفوبي إلى المغایرة الفردية، ميلاً آخر نحو النورم^(١). ولكل لغة نورمها الخاص. فان افراد المجتمع، عن غير وعي، يميلون إلى البقاء ضمن نطاق نورم اللغة. قد يكون السبب في ميلنا غير الوعي للبقاء في النورم اللغوي خوفنا من ان نخالف ما عليه الجمهور، او قد يكون لاصلاح الخطأ الذي يحرض الآباء والجبل القديم على ان ينبهوا عليه الجيل الجديد، او قد يكون خوفاً من الهزء والسخرية،

(١) norm وهو النموذج العام، او القياس المشترك المتفق عليه في المجتمع، او العام المألوف او الطابع المميز. مثلاً، هناك نورم للهجة اللبنانيّة التي لها خاصيات عامة مشتركة مألوفة يقبلها اللبناني. وللهجة المصرية نورم خاص وكذلك للهجة العراقيّة. فإنك اذا سمعت لبنانياً او مصرياً او عراقياً يتكلم قلت حالاً هذا من لبنان وهذا من مصر وذاك من العراق، لأن لكل لهجة نورمها الخاص. وستستعمل لفظة نورم بشكلها الغربي تخلصاً من صعوبة الترجمة، او الى ان يتفق العرب على ترجمة لها. ونحن، اذا عجزت اللغة عن الترجمة، فاننا لا نستكف عن الاقتباس.

او تهربا من ان نرمى بالتحذلق والتشدق والمغايرة لا لسبب سوى ان يقال عنا اتنا مختلف عن الآخرين . وقد يكون هناك أسباب بسيكولوجية أخرى لا نعرف لها تعليلها . والأسباب لا تهمنا بقدر ما يهمنا تقرير الواقع وهو ان في كل لغة حية قوتين متضادتين الاولى تدفع بالفرد عن المركز Centrifugal وأخرى تشد به نحو المركز Centripetal . وهذا الشد بالفرد نحو المركز والدفع به عن المركز يخلقان نوعا من التوازن اللغوي الذي يعرف بالنورم . وهذا ما يبقى اللهجة ضمن نطاق معين الى حين ، وما يؤخر عملية التجزو السريع .

(ب) اتساع الرقعة الجغرافية :

ذكرنا سابقاً ان للغة مجرى طبيعياً تسير فيه . وقد تحافظ اللغة على اصواتها وعلى صرفها ونحوها وتركيبها زمنا طويلا اذا ظل المجتمع الذي يتكلم هذه اللغة مجتمعا صغيرا قربا من الموطن الاول ، او اذا ظل متربطا متأسسا متجانسا منكمشا على ذاته ، تشد افراده بعضهم الى بعض عوامل اقتصادية وروابط روحية وأمان مشتركة . ولكن هذا لا يعني انه لن يطرأ تغيير ما . كلا . بل يكون التغيير طفيفا وبطيئا لا يظهر اثره في الحال . اما اذا اخل المجتمع الى مجتمعات بسبب ضعف الروابط التي كانت تربطه سابقاً ، أو بسبب فقدانها ، فان المجرى يميل الى التشعب والانقسام ، وعندما تظهر الفروقات اللغوية بسرعة ووضوح . ولكن يجب ان نلاحظ ان المهاجرين او النازحين عن اوطانهم الى اوطان جديدة يحتفظون في الوطن الجديد بميزات لغوية قديمة قد تكون اندثرت وتلاشت في الوطن القديم كما حدث في فرنسية مونتريال (كندا) فانها تحتفظ بعناصر لغوية تعود الى القرن السابع عشر ، وليس لها من وجود في لغة فرنسا الام . وكذلك في برتغالية البرازيل ، فان فيها عناصر لغوية قديمة لن تجدها اليوم في لغة البرتغال الام . ونحن نميل الى الاعتقاد بأن فقدان الاعراب من لغة الكلام وظواهر لغوية أخرى ككسر حرف المضارع من الامور السابقة للهجرة العربية الى مواطن جديدة ، وليس نتيجة العوامل

التي ظهرت بعد الفتح والاحتلال بأسم جديدة. ان اتساع الرقعة الجغرافية يعمل على تشعب المجرى وتجزئه الى مجار صغيرة مختلفة.

(ج) احتكاك لغة بلغة اخرى:

عندما تدخل لغة جديدة الى بقعة جغرافية جديدة فانها لا تدخل الى فراغ لغوي. يجب ان يكون هناك قوم او اقوام يتكلمون لغات مختلفة. وفي هذه الحالة يحدث واحد من امرتين: اما ان تتغلب لغة الفاتح فتحتل المرتبة الاولى وتصبح لغة البلاد الرسمية، او ان تتغلب لغة المغلوبين بفضل تقدمهم في الحضارة، او بسبب قلة افراد الجماعة العسكرية المحتلة. وفي الحالتين يطرأ تغيير في اللغتين سواء أماتت الاولى ام انتصرت الثانية. ان نتيجة هذا الصراع اللغوي الثقافي يظهر في اللغة. وأفضل مثال على هذا احتكاك العربية بالأرامية والآيرانية.

بدأ تعرب سوريا قبل الفتح العربي. ولم يكن من الصعب على اللغة العربية، نظراً للتقارب ونظرأً للقرب العرقي واللغوية بين الآراميين والعرب، ان تفرض ذاتها بفضل العامل الديني والعسكري. وقد كان احتكاك العرب الثقافي باهل سوريا القدماء قديم العهد يظهر لك ذلك في كثير من المفردات الثقافية والزراعية والدينية التي هي من أصل سرياني^(١). فكان من الطبيعي ان يعتري العربية المحكية تغير كبير في الاصوات والتراتيب والتعابير، سواء أكان المتكلمون من العرب ام من اهل البلاد. اثر السريانية ظاهر في عربية سوريا ولبنان المحكية وهذا امر طبيعي. فعندما يقول اللبناني او السوري او العراقي: «شفتو لاخوك او خيك»، فانهم يتكلمون لهجة مفرداتها عربية ولكن تراتيبها سريانية صحيحة. هكذا يجب ان يقال في السريانية. فكانه يصعب على الناس ان ينسوا نسيانا تماما ما يسميه علماء اللغة تمذاج لغوية Speech

(١) راجع كتاب Siegmund Frankel: Die aramaischen Fremdwörter in Arabisch, Leiden 1886.

patterns . وعندما يقول بعض اللبنانيين ena (أنا) فاما يلفظون الضمير السرياني لا العربي . وقد نبه أكثر من مستشرق الى اثر السريانية في اللهجة اللبنانية السورية العراقية (موطن الآرامية القديمة) شخص بالذكر منهم العالم اللبناني المنسنior فغالي الذي كان استاذ اللغات السامية في جامعة بوردو في فرنسا . وفي كتبهم ما يغنينا عن الاسهاب^(١) .

اما احتكاك العربية بالائرانية فلم يكن له من اثر في التركيب نسبة لاختلاف العائلتين اللتين تنتسبان اليهما . ولكن التفاعل الحضاري بين فارس والعربية ظهر في المقتبسات من المفردات التي تدل على نوعية التفاعل . فان العربية مثلا اقتبست كلمات عديدة لها علاقة بالمطبخ وفن الطبخ ، وبالمنزل وأثنائه ، وبالدواوين الحكومية ومصطلحاتها ، وبالنظام الاقتصادي والعسكري . وكذلك أخذت الفارسية عن العربية أكثر مما اعطتها ، فان الفارسية تعج بالمفردات العربية الدينية والفلسفية والصرفية والنحوية ، غير أنه لا اثر لتفاعل لغوی في التركيب (الصرف والنحو) .

• • •

(١) راجع كتاب Mgr. Michel Feghale: *Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban*, 1923, Paris

قد لا ترضى عن هذه الأسباب التي تعمل على نشوء اللهجة: المغایرة الفردية، واتساع الرقعة الجغرافية، واحتكاك لغة باخرين. فقد تقول، مثلاً، أليست العناصر الإنسانية في التغيير اللغوي أشد فعلاً من العناصر الخارجية: الطبيعية والجغرافية؟ أو ليست هذه العوامل إنسانية أي ان مردتها الأخير للإنسان؟

ان علماء اللغة يسلمون بان للطبيعة اثراً في اللغة: المناخ والطوبغرافيا والطعام وخلافها. ولكن هذا الأثر طفيف ويظهر في المفردات لا في التركيب، ولللغة بتركيبها. ولذلك ترى ان علماء اللغة يميلون الى تعليل التغيير اللغوي عن طريق العنصر الانساني. هنالك نواميس لغوية تحكم بمصير اللغة، ولكن هذه النواميس - إذا صحت - نسميتها نواميس - مردتها في آخر الامر الى الانسان ذاته. هذه النواميس اللغوية هي: -

(أ) تغييرات في لفظ الحروف المصوتة (الحركات).

(ب) تغييرات في لفظ الحروف الصامتة.

(ج) تغييرات في المفردات من جهة المبنى والمعنى.

(د) تغييرات في التركيب.

ويحسن بنا ان نأخذ كلها بشيء من الاسهاب.

(أ) تغييرات في لفظ الحروف المصنوقة (الحركات) :

والحروف المصنوقة أكثر الفونيمات تعرضاً للتغير، وهذا التغير يضفي على اللهجة المحكية مسحة تجعلها مغایرة تمام المغايرة لللغة الأدبية. الا ترى الفرق العظيم بين حركات اللغة العربية المحكية، وبين حركات العربية الفصحى كما يجب ان تكون عليه عند قراءتك قراءة فصيحة؟ ان حركات العربية الأصلية ثلاثة، قصيرة وهي ئَ a ، وتمثلها الفتحة والكسرة والضمة، وطويلة اذا تبعها الف وباء وواو فتصبح، ئَّ a . ولكن الحركات في العربية المحكية أكثر من ثلاثة. فانه فضلا عن هذه فان هناك حركات مغایرة للفصحى: ئَّ ê oy êy . وربما غيرها كثير. ثم اعتبر لفظ المقطعين ئَّ وْ aw كما في يوم وَيْ كما في بيت، فانهما في أكثر اللهجات العامية اصيحاً وَهْ كما في yôm و bêt . واعتبر كذلك اختلاس حركة واطالة حركة أخرى خلافاً لما هي عليه في الفصحى. ففي الفصحى نقول اكتب وفي العامية «كتوب» وفي الفصحى نقول قم وفي العامية «قوم». وهل سمعت اناساً يلفظون الـَّ ؟ أبغى الى اهل الكورة يقولون « طروبليس وجوهل وعوقل » بدلاً من طرابلس وجاهل وعاقل.

وهناك قضية لم يعطها لغويو العرب حقها من العناية، حتى انهم لم يضعوا لها لفظاً خاصاً بها، ومعنى قضية النبرة accent وأثرها في الحركة من حيث الطول والقصر. فمن قوانين التركيب المقطعي للكلمة syllabic structure انه اذا كانت الكلمة مركبة من مقطعين الاخير منها طويل الحركة، ووقدت النبرة على المقطع الاول فان المقطع الثاني الطويل يصبح قصير الحركة كما حدث في لفظ الكلمة Friday المركبة من مقطعين day (الأخير طويل الحركة). ولكن النبرة على المقطع الاول ولذلك اختلاست حركة المقطع الاخير فاصبح قصيراً، ولذا يلفظها الانكليز Fraidy . ويقول اللبناني «كتوب» ولكنه يقول «كتب لو».

ان حركات اللغة تنتقل من جيل الى جيل بالتقليد. ولكن منها حرصنا

على ان يقلد الجيل الجديد الجيل القديم تقليدا تاما في لفظ الحركات وفي النبرة فان هذه تظل عرضة للتغيير. وسبب التغيير هو العنصر الانساني: الشذوذ، الفردية، المغيرة، الكسل، او امور انسانية اخرى نجهلها^(١).

(ب) تغيرات في لفظ الحروف الصامته

ويطرأ تغيير في لفظ الحروف الصامته. فان حروف الثاء - خلا في مجتمعات عربية قليلة كالمجتمع الدرزي في لبنان - فقد قيمته اللفظية الاولى وأصبح تاء، وفي بعض كلمات سيناً كما في « حيس وبجيس » عوضا عن حيث. وأصبحت القاف همزة في بعض الأوساط، وجها مصرية في اوساط أخرى، وقسم من أهالي بيروت يلفظونها كافاً. وقد استبدل حرف الذال بالذال وبالزاي فيقال « كزاب » « وكماب ». ويقولون « زلك والزي » عوضا عن ذلك والذى. والعراقي لا يفرق حتى في الفصحى، بين ض و ظ.

لماذا تحدث هذه التغيرات؟ ما الاسباب؟ هل لان حرفا اسهل من آخر؟
هل للبيئة من اثر، أم هو العنصر الانساني الذي ذكرناه سابقا؟

ان علماء اللغة اليوم لا يهمهم تعليل الأسباب بقدر ما يهمهم وصف الواقع. فاننا نعرف مثلا قانونا صوتيا في اللغات السامية لا يتغير وهو ان الثاء العربية يقابلها حرف الشين في العبرية والباء في السريانية فيقال:

ثاب (عربي) (شاب عبراني) تاب^(٢) (سريانى).

لماذا؟ لا نعرف ونلاحظ كذلك في اللغات الهندوجermanية قوانين صوتية^(٣)

(١) بعض المدارس اللغوية الحديثة، مثل مدرسة جامعة لندن، ترفض رفضا باتا الدخول في « لماذا؟ » « ولادي سب؟ » و « ما هو التعليل » يقولون ان عمل اللغة هو وصف ما يجري او وصف ما هو واقع وليس له ان يفسر. هؤلاء يعرفون بالوصفيين descriptivists وعذرهم في ذلك اننا لا نعلم لماذا يحدث التغير.

(٢) اذن تاب الى ربه توبه ليس عربيا بل سريانيا. يجب ان يكون في العربية ثاب.

(٣) كالقوانين التي وضعها العالم الالماني Grimm وتعرف بقانون Grimm.

ثابتة. مثلا نلاحظ ان الكلمات الانكليزية التي تبدأ بحرف F يقابلها في اللاتينية او الاغريقية كلمات تبدأ بـ P ، فيقال:

father: Pater

five: Pente

لماذا؟ لا نعرف. إنما يهمنا تقرير الواقع وهو ان الاحرف الصامتة، كالاحرف المضوية، عرضة للتغيير.

(ج) تغيرات في المفردات من جهة المبني والمعنى:

اما في المبني فيكون التغيير نتيجة قلب مثل «اجاء» بدلا من جاء «وفحر ووعق» عوضا عن حفر ووقع. او نتيجة زيادة مثل رجال بدلا من رجل، او نقصان مثل مرة عوضا عن امرأة او نتيجة نحت مثل «جاب» المنحوتة من جاءب «واصطفل» المنحوتة من اصطف ل.

ويحدث تغيير في معنى المفردات. وهذا أمر معروف. فإنك اذا أخذت المعجم العربي - مثل لسان العرب - وراجعت بعض المفردات لأأخذك العجب من بعد الشقة بين مفهومها الآن وبين مفهومها في الصدر الاول. اعتبر مثلا لفظ الباخرة والقطارة والجريدة والمذيع والهاتف والسيارة والمحرك والتيار الخ فانها وضعت لمعانٍ تختلف عن معانيها الآن. وما يؤسف له ان قاموسنا العربي لا يورخ لنا معنى الكلمات، اي تطور المعنى على مر العصور كما يفعل القاموس العصري للغة العصرية كقاموس اكسفورد للغة الانكليزية. فإنك اذا فتشت فيه عن معنى كلمة بسيطة مثل nice لوجدت ان هذه اللفظة مرت في اطوار عديدة وفي كل طور كان لها معنى مختلف قليلا ، وأحيانا كثيرا ، عن المعنى السابق.

(د) تغييرات في التركيب:

وأكثرها راجع لفقدان الاعراب. اذ من المعلوم ان في اللغات العربية تدل علامات الاعراب على وظيفة الكلمة في الجملة بقطع النظر عن موقعها. وقد يكون منشأ الاعراب حرية التصرف في تركيب الكلمات، اي تمكين المتكلم والمنظم والمغني من ان يغير مركز الكلمات في الجملة على ان تقرن الكلمات بعلامات فارقة تدل على الوظيفة التي تقوم بها في الجملة. وذلك لأن العلاقة بين اجزاء الكلمة، في ابسط تركيبها، كانت تظهر في الترتيب، اي الفاعل اولا ثم المفعول به. ولكن اذا اردنا، لسبب ما، ان نغير الترتيب وجب علينا ان نوجد علامات فارقة لاجزاء الكلمة لتدل على وظيفتها في الجملة. ففي العربية، وهي لغة معرفية. نجد آيات كهذه:

﴿إِنَّمَا يَخْشِيُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَاءُ﴾^(١)

﴿إِنَّ اللَّهَ بِرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾^(٢)

﴿وَإِذْ أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ﴾^(٣)

وفي جميعها، وفي امثالها، يتوقف فهم المعنى على علامات الاعراب. وعليه وليس من الضروري ان نحافظ على ترتيب موقع الكلمات. اذ قد يأتي الفاعل في آخر الجملة والمفعول به في اولها. ولكن اذا سقط الاعراب وجب التعويض عن فقدانه، ويكون التعويض ابدا في تغيير التركيب، اي بتغيير موقع الكلمة في الجملة. ففي الاولى، اذا اراد رجل ان يضعها بلغته كي يفهمها ولده الصغير، يجب ان يكون التركيب على هذا النحو: العلماء، من بين العباد، يخشون الله. وكذلك في عبارة «أخبر خالد أمنا....». فانه اذا سقط الاعراب يصعب علينا ان نميز بين المخبر والمخبّر. ولكن في العامية حلّت المشكلة بتقدم الفاعل ابدا فنقول «خالد أخبر أمنا».

(١) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٢) سورة التوبه، الآية ٣).

(٣) سورة البقرة، الآية ١٢٤).

ان اللغة، كجسم حي، تخضع للنواحي الطبيعية من حياة ونمو وتغير وموت. وهي شأن كل ظاهرة طبيعية تتبع في جريانها الجهة التي تلقى فيها أقل مقاومة ممكنته (line of least resistance) ولللغة كظاهرة انسانية تميل الى الاقتصاد، بكلام آخر، نستطيع ان نعمم القول بان اللغة في جريانها تسير:

من الصعب الى السهل

من الخشن الى الناعم

من المعقد الى الميسر

من المزخرف الى البسيط

ولذا تنشأ على مر الاجيال لهجات مخالفة للغة الادبية التي نوقف سيرها الطبيعي بوساطة سياج شائك من الاحكام والضوابط. ونرحب في ختام حديثنا عن نشأة اللهجة ان نؤكد مرة اخرى ان اللهجة ليست اخطاطا لغويا كما يظن، بل تطورا ونموا ومسيرة للحياة.

العامية لغة قائمة بذاتها، حية متطورة

ان تعريفنا العامية بأنها لغة قائمة بذاتها حية متطورة نامية، كما يبدو في العنوان لن يرضي المجموع الاكبر منا. لأننا اعتدنا ان ننظر الى العامية انها لغة رديئة فاسدة تميز باللحن والرطانة والعمجمة، فلا يمكن ان تكون حية متطورة نامية، بل انها تمثل انحطاطاً لغويَا، تمثل الموت في اللغة لا الحياة. عندما انعقد مؤتمر الادباء العرب في بيت مري (ايلول ١٩٥٤) واثيرت قضية ازدواج اللغة واثرها في الادب، برزت هذه النظرة - ان العامية، ليست لغة بل لهجة فاسدة - احسن بروز. فانبرى الخطباء يدافعون عن الفصحي بمحاجة العامية، ووجه المحاجة انها ليست لغة بل لهجة تتجسد فيها الركاكة والرطانة. وقد اتيح لي ان اتحدث للناس، بواسطة الاذاعة، عن قضية ازدواج اللغة وأثرها في الفكر والتربية والاخلاق، فانبرى صديق لي، الاستاذ زكي النقاش يسفة الرأي. قال حفظه الله: - ... وحضرته اي (انيس فريحه) احق منكم ان يعلم ان العامية لهجة وليس لها صرف ولا نحو، وانها في الحقيقة وليدة البهل والتخلف...^(١) المؤتمرون الادباء في بيت مري وحضره الاستاذ زكي النقاش في الآداب انما يمثلون الفكرة الخاطئة الشائعة عند العرب: العامية ليست لغة بل لهجة رديئة. ولذا سناحول في هذا الفصل ان نثبت اولا ان العامية لغة قائمة بذاتها، ثانيا انها لغة حية متطورة نامية

(١) مجلة الاداب الـ بيـروـتـيةـ، العدد ١١ـ، السنة الثانيةـ، ص ٧٨ـ.

تتميز بجميع الصفات التي تجعل منها اداة طيعة للنفهم والإفهام، وللتعبير عن دوائل النفس.

العامية لغة قائمة بذاتها :

ان الفروق اللغوية بين العامية والفصحي التي ينظر اليها الناس انها فروق طفيفة جزئية، او انحراف بسيط عن الفصحي، هي، من جهة نظر علم اللغة، فروق أساسية جوهرية تبرر اعتبار العامية لغة قائمة بذاتها، سواء أكان هذا في النظام الصوتي ام التركيبي ام الصرف ام النحوي ام في المفردات والتوليد والاقتباس والقياس^(١). وسبب الخطأ في الزعم ان العامية والفصحي لغة واحدة راجع الى سهولة الانتقال من العامية الى الفصحي عند عامة المتأدبين الذين قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في اتقان العربية قواعدها وشواذها. فاذا قلت لاديب، او لرجل قيس له ان يتم دراسته الثانوية (وليس قبل هذا) ان يغير الجملة العامية التالية : «مباح رحت للسوق واشتريت كيلو عنب بخمسة عشر قرش او ارش ،» الى شكلها الصحيح كما تتطلبه قواعد الفصحي لا جابك على الفور : ذهبت أمس الى السوق واشتريت رطلا عنبا بخمسة عشر غرشاً. الامر بسيط، وبسيط جداً ! ولكن الخطأ هو في اننا ننظر الى اللغة بمنظارنا نحن لا بمنظار الصغير الذي لا يعرفها، او بمنظار الاجنبي عنها. الصغير والاجنبي كلما يربان في الفصحي لغة اخرى مغايرة لها تمام المغايرة. اما نحن لاننا نستطيع ان ننتقل بيسر من العامية الى الفصحي ومن الفصحي الى العامية ، فقد ننسى ان عملية الانتقال لا تم الا بعد ان تكون قد قضينا سنوات عديدة في تعلم احكام الفصحي .

لتأخذ ولدا في المدرسة يحاول ان ينقل هذه الجملة ذاتها من العامية الى الفصحي. ولنسايره في عملية التغيير. ولن نحدثك عن الاختلاف الظاهر في

(١) وقد نبه الى هذا الامر ابن خلدون فانه شعر ان لغة العرب في عهده ليست العربية الفصحي بل لغة مغايرة لها. المقدمة - طبعة بيروت ص ٥٠٨ - ٥١١.

نطق الحروف المصوّتة في العامية والفصحيّ بل نكتفي بذكر الفروق الصرفية والنحوية والمعجمية.

١ - على هذا الولد ان يعرف أن - راح - هذا الفعل الفصيح المسكين المغضوب عليه لا يستعمل في اللغة الكتابية لأنّ الفصحيّ لسبب لست أعلمه رضيّت عن «ذهب» ونقمت على «راح» فنبذته. فلا يقال رحت الى السوق بل ذهبت. والثاء في آخر الفعل يجب ان تكون مضمومة. عليه ان يتلّمّ هذا في المدرسة.

٢ - عليه ان يتلّمّ ان - مبارح كُلمة عامية، والعامي قبيح رديء، يجب ان تستعمل كُلمة أشرف او اجل او الطف منها، وهي كُلمة «امس». وقد يسألنا هذا الولد عدّة أسئلة عن هذه الكلمة فيقول لنا مثلاً لماذا هذه الكسرة في آخرها؟ وقد يسألنا وما الاعتراض على لفظة «مبارح» فانّها فصيحة، فصيحة بالنسبة للهجة من قال «ليس من امير الصيام في السفر» بتغيير لام التعريف الى ميم، فانّ البارح أصبح «مبارح» ولكن معلم الولد، تحت ضغط الرأي العام، يقول له لا تستعمل هذه اللفظة بل استبدلها بامس، ولا تنس انّها مكسورة! وبما ان اجوبته لا تقنع الولد فانه يتقبل ما يقوله المعلم له ويُسكت على ضم.

٣ - عليه ان يتلّمّ ان الفصحيّ تفضل «الى» وليس «ل» التي هي في الأصل الى، وعليه ان يتلّمّ انها تجر الاسم بعدها (وليس دائمًا!) ولأن لفظة سوق معرفة بأّل فانّها لا تنوون. ثم انه يسأل ما معنى الجر - والجر عنده السحب - ويُسأل عن التنوين فيقال له هو نون ساكنة في آخر الاسم فيلتفت ليري البنون الساكنة فلا يراها بل يجد مكانها - ؟! ويُسأل هذا الولد عن التنوين وعن طريقة كتابته وعن الحكمة فيه. وقد يقال له انه نوع من التشكير، او اعذار اخرى، ولكني متأكد أن كلّ ولد يتقبل هذه على ضم لانه لا يدرك هذه الفلسفة اللغوية المغايرة للغة الحياة، فيُسكت على ضم.

٤ - وعليه ان ينتظر طويلا الى ان يكبر ، الى ان يصبح له من العمر ١٣ او ١٤ او ١٥ سنة حتى يتعلم قوانين التمييز ، لأن هذا الموضوع الصريفي لا يعلم في السنوات الاولى . عندما تعلمت قوانين التمييز وفهمتها حقا كنت في سن الشباب ، اذن لا يستطيع الولد ان يغير « رطل عنب » الى رطلا عنبا . ولكن قد يرأف به الاستاذ فيقول له : لا بأس من ان تقول « رطل عنب » على سبيل الاضافة ، فيشكّره على هذا الرفق به .

٥ - وعليه ان يتعلم قوانين العدد المعقّدة التي تظهر العربية الفصحى فيها على اقبح ما يكون من التعقيد اللغوي . اني متيقن من ان ٩٥٪ من العرب المتأدبين عندما يأتون الى ذكر العدد كتابة او خطابة عليهم ان يقفوا قليلا ليعيدوا القاعدة : هل هذا مذكر ام مؤنث ، هل هذا معرب ام مبني : هل هذا مفرد ام مركب ، هل المعدود منصوب ام مضاف اليه ... الخ . ويشهد الله اني انا الذي قضيت شطرا من حياتي في تدريس العربية توقفت قليلا عندما نقلت جلة « مبارح رحت للسوق واشتريت رطل عنب بخمسة عشر قرش » الى الفصحى . هل هي خمس او خمسة او خمسة ، عشر او عشر او عشرة ، وبعد هذا التفكير نقع في الخطأ الذي نحاول تجنبه !! وقد يسأل هذا الولد عن سبب التعقيد ، ولكن الاستاذ لن يستطيع ان يفسر له هذه الظاهرة لانها ترجع الى عصور سحيقة في القديم عندما لم يكن هناك منطق ولا قياس .

٦ - واخيراً عليه ان يتعلم احكام المعدود - ايكون مفردا ام جماعاً منصوبا ام مجرورا . وقد يجد له الاستاذ تعليلا . ولكنه يتقبل الامر ويسكت على ضم .

بعد هذا لنا ان نسأل القارئ : هل الفروق بين العامية والفصحي طفيفة جزئية لا اهمية لها ؟ قد يشار الى المفردات في اللغتين ، العامية والفصحي ، على انها مشتركة بينهما . هذا حق ، ولكننا نريد القارئ ان يدرك حقيقة لغوية لا يتناولها كيشا ماعز :

ليست اللغة مجموعة كلمات . تستطيع ان تتعلم مفردات القاموس الالماني او قاموس اكسفرد او لاروس ولكنك لن تستطيع ان تطلب الى خادم في برلين او لندن او باريس ان يأتيك بقدح ماء او رغيف خبز ، لأن اللغة بتركيبها . التركيب جوهر اللغة ، وتركيب العامية مختلف في نواح عديدة ، فهـا لغتان لا لغة واحدة .

ثم ان هناك دليلا آخر على ان العامية لغة قائمة بذاتها وهو الدليل البيسيكولوجي . يشعر عامة العرب ان لغتهم هي اللغة المحكية وان الفصحى لغة رسمية . فهم لا يشعرون انها جزء من حياتهم بل انهم اذا تكلموا او صلوا او غنووا او غضبوا او شتموا فان اللغة التي يعبرون بها عن هذا كله انما هي العامية .

هذا فيما يتعلق بعامة الناس ، ولكن ما قولك بخاصتهم ؟ اذا طلب اليـا ان تلقـي كلمة في موقف رسمي او أن تـخـاضـرـ . أو ان تـذـيعـ كلمةـ ، الا تـرىـ انـناـ نـعـيـدـ كـتـابـةـ ماـ نـكـتبـهـ مـرـاتـ ، وـنـعـيـدـ قـرـاءـتـهـ مـرـاتـ ، وـقـدـ يـكـونـ بـيـدـنـاـ قـلمـ أـخـرـ «للرتوش» ، فـهـنـاـ عـبـارـةـ لـاـ يـرضـيـ عـنـهـ زـيـدـ ، وـهـنـاكـ كـلـمـةـ قـدـ يـحـتـجـ عـلـىـ اـسـتـعـالـاـهـ عـمـرـوـ ، هـنـاـ ضـمـةـ بـدـلاـ مـنـ فـتـحةـ ، وـهـنـاـ كـسـرـةـ بـدـلاـ مـنـ ضـمـةـ ، وـقـدـ نـشـعـرـ بـشـيـءـ مـنـ الطـهـأـيـنـيـةـ اـذـ اـسـتـشـرـنـاـ زـمـيـلـاـ اوـ طـلـبـنـاـ اـلـيـهـ انـ «ـيـحـرـكـهاـ» ! كلـهـ لـاـنـ الفـصـحـىـ لـيـسـ لـغـةـ الـحـيـاـةـ .

قد تقول : في العالم كله عندما يقف الواحد موقفا رسميا يحتاج الى «روتشة» لغته . هذا صحيح ، ولكن الفرق بين عامية الانكليزية والفرنسية وفصحي الانكليزية والفرنسية لا يقاس بالفرق الشاسع بين عاميتنا وفصحانـاـ . نـحنـ لـاـ نـعـتـقـدـ اـنـ هـنـاكـ وجـهـاـ لـلـمـقـارـنـةـ .

العامية لغة حية متطرفة:

في كل امة مدرستان لغويتان: الواحدة تنظر الى اللغة المحكية انها اخطاط لغوي ، وان اللغة الادبية هي الفصحي . وتحاول هذه المدرسة فرض هذه الفصحي ، بشكلها الذي وصلت به الى الناطقين بها من نقطة معينة في الزمان والمكان ، على مجتمع بعد عن هذه النقطة ، أو قل على مجتمع يسير مع الحياة فهو لا يعرف الجمود . والمدرسة الثانية تنظر الى اللغة المحكية انها نتيجة محتملة لجري اللغة او اتجاهها . فالعامية عندهم تمثل تطوراً طبيعياً وتتطوراً نحو الافضل والاسهل ، لا اخطاطاً وتقهقر ا كما يخيل لاتباع المدرسة الاولى . ونحن ندلل لك على صحة دعوانا - ان العامية حية نامية متطرفة - بذكر بعض الظواهر اللغوية التي نحسبها تقدماً وتتطوراً :

اولاً : فقدان الاعراب

والاعراب لا يتلاءم والحضارة . نحن نرى في الاعراب ، الاعراب في اية لغة ، بقية من البداوة . قد يساعد الاعراب على الفهم ومنع الالتباس ولا سيما في الموضع التي فيها تقديم وتأخير في مرتبة المفردات كما يقع في الشعر والنثر الفني ، ولكن حكمه في ذلك حكم اية قرينة اخرى تساعد على الفهم .

ولا تعجبن فاننا لسنا اول من قال بان الاعراب زخرف لا قيمة له في الفهم والابهام . اقرأ في مقدمة ابن خلدون^(١) ص ٥٠٨ - ٥١١ واقرأ مقدمة ابن قزمان الاندلسي^(٢) تجد ان النقمة على الاعراب قدية العهد .

ان فقدان الاعراب ليس اخطاطاً بل تطوراً مع الحياة . وهذا هم العرب نراهم قد اسقطوا الاعراب منذ الصدر الاول . وان صح الخبر عن اي بكر

(١) طبعة بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٨٧٩ ، وموضوع الفصل التاسع والثلاثون : في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مصر وحير . والفصل الاربعون في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مصر .

(٢) لديوان ابن قزمان نسخة خطية وحيدة في لينينغراد . وفي الجامعة الاميركية نسخة فوتوغرافية عنها . يحمل ابن قزمان في مقدمة الديوان حلقة شعواء على الاعراب .

انه كان يقول: «لان اقرأ فاسقط احب الي من ان اقرأ فالحن»^(١) وان صح الخبر عن رجل قرأ القرآن في حضرة النبي فلحن فقال «ارشدوا اخاكم» واداً صح ان عمر بن الخطاب كان يضرب اولاده على اللحن ولا يضرهم على الخطأ، فإنه يمكن اتخاذ هذه دليلاً على ان الاعراب لم يكن ممكناً في لغة الناس قبل ظهور الدعوة. ويروى عن الرسول انه قال «اعربوا القرآن». ولا تظنن ان الناس اسقطوا الاعراب عمداً، او خروجاً على نورم اللغة، او مشاغبة، او شعوبية، كلاً، اما سقط الاعراب من تلقاء ذاته، كما سقط في سائر اللغات السامية وغير السامية لأن ليس له قيمة بقائية Survival value.

ونحن نذهب الى ابعد ما ذهب اليه لغويو العرب فنقول ان اسقاط الاعراب من لغة الناس المحكية سبق نزول القرآن الكريم، غير ان القرآن الكريم نزل بلغة الأدب والشعر والدين لذلك العصر، ومن الطبيعي، لا بل من الضروري، ان ينزل بلغة الأدب والشعر والدين^(٢) ونعتقد ان المجتمع

(١) نقول ان، وبخط تحتها، لأن الحديث ينسب إلى كثرين. فإنه ينسب إلى الشعبي، راجع «الارشاد»، الجزء الاول ص ٢٦. والغريب أن الفراء يروي حديثاً عن أبي بكر ينافي الحديث السابق الذي نحن بصددده «وقال أبو بكر الصديق رحمة الله أن اعراب القرآن لأحبن لي من حفظ بعض حروفه»، راجع: Paul E. Kahle: Cairo Geniza p. 116 (London 1947)

(٢) يعتقد بعض المستشرقين ان لغة القرآن مبنية على قوانين اللغة العربية التجدية البدوية كما ترائي لنا في الشعر، وان قواعد الاعراب وضعت في القرن الثاني، وقد جاهر بهذه النظرية مستشرق الماني عام ١٩٠٥ في مؤتمر الاستشراق الذي عقد في الجزائر، واسمه كارل فولرلز. ثم انه وضع نظريته هذه، بعد تعزيزها بشواهد من القرآن ومن القراءات، في كتاب معروف: Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien (Strassburg 1906)

وقد رد عليهشيخ المستشرقين ثيودور نولدكه في Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft p. 1 ff (Strassburg 1910)

(1) The Cairo Geniza, pp. 78-84 Paule E. Kahle في:

(2) The Arabic Readers of the Koran ١١٦ - ١١٥ The Journal of Near Eastern Studies, 8. April 1949, pp. 65-71.

(3) The Qur'an and the Arabiya (Goldziher's memorial pp. 163-182).

الإسلامي الاول، نسبة لاعجابه بهذه اللغة ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم، جهدوا ان يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية. يدلل على ذلك مبلغ الجهد الذي اتفق في سبيل ضبط احكام هذه اللغة، وفي محاربة اللحن، وفي اصرار المقامات. العليا على ان تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمنشئين. ووضع سياج حول اللغة للحفاظ عليها امر طبيعي، لا بل ضرورة، لكل امة ناشئة. الدولة الناشئة بحاجة الى لغة قومية، لأن اللغة القومية من مقومات الامة كالشعب والبقعة الجغرافية والدين والى ما هنالك من مقومات.

ونحن لا نعترض على الحفاظ على لغة كلاسيكية لما فيها من كنوز ، إنما نعترض على فرض لغة تاريخية على جيل بعدt حياة الناس فيه عن ذلك الجيل ، ونعترض على المبدأ القائل بان قوانين اللغة من صرف ونحو وأساليب ، لا تغير ولا تتبدل « كشريعة مادي وفارس » وذلك لأن اللغة تتغير ، شيئا ام أبينا .

ان كثيراً من اللغات الكلاسيكية كانت معربة كاللاتينية والاغريقية والسنكريتية. ويظهر ان الاعراب ميزة من مميزات اللغات القديمة. ولكننا اذا اخذنا اللغة عامة وجدنا ان الميل هو لاسقاط الاعراب. فمن اللغات السامية لا نجد لغة معربة سوى العربية الفصحى. قد تجد في هذه اللغة او تلك بقايا اعراب ولكن تستطيع ان تعمم القول في ان اللغات السامية (باستثناء العربية الفصحى لا المحكية) اسقطت الاعراب. وكذلك اسقطت اللهجات التي تحدرت من اللاتينية كثيراً من الظواهر الاعرابية ، وبقاء الاعراب في بعض اللغات الاوروبية ليس دليلاً على قيمة البقائية ابداً هو دليل على الرجعية في اللغة. وها هي الانكليزية ، التي لم يبق للاعراب فيها من اثر كبير ، تعبّر عن الفكر والعلم والفن بيسير ، ولو ان للاعراب ضرورة للفهم والافهام لبقي وحافظت عليه جميع اللغات التي كانت معربة ، ولكن

لكونه غير ضروري سقط. وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في بحراها الطبيعي، فهي من هذه الناحية حية نامية متطرفة.

ثانياً: التطور الصرفي والنحو

ليس لنا ان نعيid هنا ما قلناه آنفاً من ان العامية لغة مغايرة للفصحي في صرفها ونحوها وتركيبها ومفرداتها وبيانها.

ولا يسعنا في هذا المقام تعداد الفروقات البينة بين صرف العامية ونحوها وبين صرف الفصحي ونحوها^(١). اما نريد ان نؤكّد ان صرف العامية ونحوها يمثلان تطوراً وتقدماً. فاقتصار العربية المحكية على عدد قليل من الضمائر، وتصريف الفعل، واستعمال اسمي الفاعل والمفعول وصوغ المجهول واهال حروف كثيرة والاستعاضة عنها بعدد اقل وغیرها كثير، جميع هذه في نظرنا تمثل تطوراً طبيعياً في اللغة وتقدماً يتمشى مع الحياة. وليس على المرء الذي يشك في هذا الرعم الا ان يطالع بعض ما كتب في اللهجات العربية المختلفة ليرى ان العامية لغة مستقلة لها صرفها ونحوها وأساليبها^(٢).

ونود ان نمثل على ذلك بناحية واحدة هي فكرة الزمن في الفعل. ان الذين درسوا اللغات السامية عامة وقابلوها باللغات الاوروبية شعروا - ولا يمكنهم الا ان يشعروا - ان فكرة الزمن في الفعل السامي غير محددة تحديداً دقيقاً كما هي الحال في اللغات الهندو- اوربية. وفي الساميات ترتكز فكرة

(١) من يعتقد ان العامية لا صرف لها ولا نحو فليراجع كتاب المسترور ميشال فغالي استاذ اللغات السامية في جامعة بوردو

Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban, paris 1923

(٢) اكثر المؤلفين من الفرنخية: المان وافرنسيين وانكليلز وايطاليين واوريبيين ومن جنسيات غيرها ونستطيع ان نقول ان جل اللهجات العامية قد درست دون صرفها ونحوها وأساليب التعبير فيها.

الزمن عامة على انجاز الفعل او ائام الحدوث لا على فكرة الزمن ذاته. فان كان الفعل او الحدوث قد تم فهو ماض وان لم يكن قد تم فهو حاضر. ولم تعرف اللغات السامية غير هذين الزمنين باستثناء العربية (التي هي احدثها تاريخياً وادباً) فانها استطاعت، بفضل افعال مساعدة وحروف، ان تتصرف بفكرة الزمن تصرفاً افضل من بقية اللغات السامية. ولكن رغم هذا فان تحديد الزمن في اللغات السامية يقصر عما هو عليه في الانكليزية او الفرنسية او الالمانية.

ولكن العافية، التي لم تخضع لاحكام الصرفين والتحوين بل جرت على السنة المتكلمين بها جريانها الطبيعي المحمٌ، استطاعت ان تعبّر عن الزمن وان تحدده تحديداً دقيقاً. فان الذين درسوا اللهجات العربية لاحظوا ان جميع صيغ الا زمان الاوروبية لها ماثلاتها في صيغ الا زمان في العافية العربية، وليس ذلك نقلأً واقتباساً عن الفرنج انا مرده الى طبيعة الانسان عامة والى المشترك في تفكيره وتصوره^(١).

ثالثاً: خصوص العافية لنوميس لغوية طبيعية

ودليلنا الثالث على حيوية العافية وتطورها مع الحياة هو انها، شأن كل لغة اخرى، تخضع لنوميس لغوية طبيعية، بينما نجد ان الفصحى نسبة للسياج الذي احيطت به، لا تخضع لفعل هذه النوميس. ولكن لغة الناس اذا افلتت من النطاق سرت مسراها الطبيعي واتجهت اتجاهها المحتم.

من هذه النوميس اللغوية الطبيعية - ولن نذكر لك جميعها، لأن هذا يقتضينا الخروج عن الموضوع - ناموس الاقتصاد. الاقتصاد في اللغة مبدأ عام، والاقتصاد جوهر من جواهر البلاغة. اعتبر مثلاً عدد الضمائر في

(١) راجع كتاب فغالي، المذكور اعلاه، ص ٣ - ٨٠ حيث يبحث الفعل. وقد عزز ذلك بكثير من الشواهد المستمدّة من لهجة لبنان الشهالية. ولكن ما يصدق على هذه اللهجة يصدق على غيرها من اللهجات العربية المحكية الى حد بعيد.

الفصحي (١٤) وعددتها في العامية (٨) ولماذا؟ لأن المثنى سقط والمثنى ظاهرة لغوية بدائية ترجع الى اول عهد الانسان بالعدد ، وقد سقطت هذه الظاهرة من اكثر اللغات التي كان فيها مثنى لأن ليس له ضرورة. كل ما زاد على واحد فهو جمع . واسقطوا جمع ضمير المؤنث . وهذا الاقتصاد في عدد الضمائر احدث اقتصاداً عظيماً في تصريف الفعل ، فعوضاً عن ان نصرف الفعل مع ١٤ نصرفه مع ٨ ، وفي الامر عوضاً عن ٦ نكتفي بثلاثة فنقول : قوم قومي قومو

رابعاً: الاهال والاقتباس والتحديد في المعنى

ودليلنا الرابع على ان العامية لغة حية نامية متطرفة حرصها على اهال (أو أمة) ما يجب ان يهمل ، واقتباس ما يجب ان يقتبس ، وتحديد ما يجب ان يحدد في معناه . فهي من هذه الناحية تساير الحياة . فانه في زمن كان الناس فيه يتلهون ببخلوانيات اللغة كان للسد اسماء لا يحضرني عددها ، وللنافقة اسماء عديدة ، وكان للسيف اسماء يصل عددها الى المئات ، وكان للعسل ما يقرب من السبعين اسماء ، وكان للداهية اسماء عديدة ، وعديدة جداً حتى قيل : اسماء الدواهي من الدواهي ! وبطرس كرامه نظم قصيدة (أمن خدها الوردي افتنك الحال....) يكاد عدد ابياتها يقرب من المئة وكل بيت ينتهي بلفظ الحال ، وفي كل بيت للحال معنى مختلف عن معنى الحال قبله ، وكلمة بسيطة مثل «الرز» ، هذا الطعام الذي نراه كل يوم على مائدة من موائد الطعام ، له في القاموس اشكال عديدة :

«**الأَرْزُّ والأَرْزُّ والرَّزُّ والرَّزُّ** (بك الاذمام) وربما كان الاصل الأروز
معنى الانقباض».

اما في العامية فللسد كلمة واحدة ، وللسيف كلمة واحدة ، وللعسل كلمة واحدة ، وانتقت العامية اسهل الالفاظ للرز ، والحمد لله على هذه النعم ! والعامية تقتبس حيث لا معدى عن الاقتباس وذلك لتحريرها من القيود

ولانعاتها من وطأة التقليد ، ولافلاتها من تحكم المجامع اللغوية . فقد ارتأت ان تأخذ لفظ التلفون كما هو في باقي لغات العالم ولم تقبل بالمصطلح الذي وضعه مجمع فؤاد الاول للغة العربية . وقد اشتقت من الاسم فعلا ، فيقولون «تلفن» وانا اوكل لك ان لا يجتمع للغة في الاقطار العربية ، ولا قوانين حكومة ، ولا سلطة اخرى على الارض تستطيع ان تقضي على هذه اللفظة او ان تخل محلها لفظة هاتف او لفظة اخرى . استعملنا في هذه الدراسة لفظة «نورم» بشكلها الغربي وفسرنا معناها العلمي المحدد^(١) ولأن نقلها الى العربية بلفظ واحد محدد المعنى والاستعمال أمر عسير ، على الاقل بالنسبة لنا ، فقد ارتأينا ان تصبح هذه اللفظة «نورم» من مفردات علم اللغة . ونعم ان بعض الخاصة لن يرضي عنها . ونعم ان فلانا من مصر سيقترح ترجمتها كذا ، وآخر من دمشق سيقترح ترجمة اخرى ، فتنشأ مشكلة سياسية اجتماعية ويخسر العلم ، ولكن العامة ، عندما ترتقي فكريا ، وعندما تالفها وتعرف معناها فلن تتردد البتة في قبوها ، وتصبح كلمة نورم ، وجمعها نورمات ، من صميم اللغة العربية ، وليم لا ؟ هل هي اقبح من الفالوذج والاسطرباب والدرهم ؟

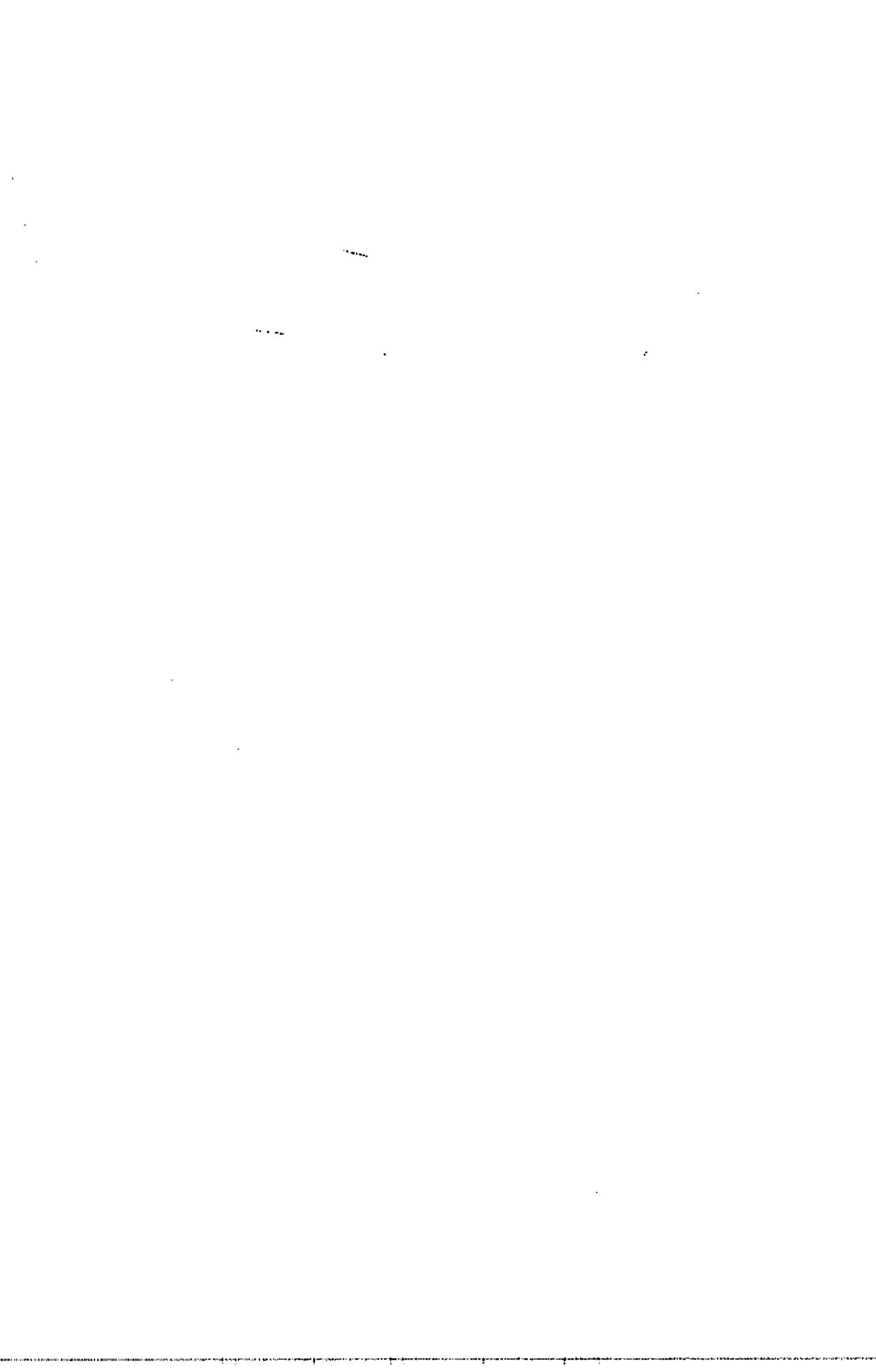
وتحرص العامية على تحديد المعنى . وهذا ما يشكو منه كل من زاول الكتابة العلمية او الاجتماعية . للكلمات العربية معان عديدة ، ومعان غير واضحة . والعلم يتطلب التحديد . خذ مثلا لفظة «درس» في القاموس واعتبر معناها المحدد في العامية . «عرف» معناها عرف ، ولكن افتحها في القاموس . راجع لفظة «حوب» في القاموس وقل لي ما معناها ؟ قد تقول هذا غني في اللغة ، واقتصر العامية على معنى واحد فقر وانحطاط . أما نحن فنخالفك الرأي ونعتقد ان هذا من دلائل الحياة . الحياة لا تقبل الغموض والا بهام ، ولا تتحمل الا حاجي والبهلوانيات . الحياة تتطلب البساطة والوضوح والحياة تهمل ما قد مات .

(١) راجع : ص ١٠٤ .

خامساً: العنصر الانساني في العامية يضفي عليها مسحة من الحياة وقد أشرنا الى هذا عندما قلنا ان اللغة اكثر من فونيات، وأكثر من كلمات، وأكثر من تركيب. للغة حياة، وهذه الحياة هو العنصر الانساني. ان الفصحي ليس لغة الكلام فلا يرجى منها ان تعبّر عن الحياة بجلowitzها ومرارتها وقوتها ولينها كما تستطيعه العامية. والدليل ظاهر، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحي ما تقول في العامية، وإذا نقلته الى الفصحي اتي جافاً قاسياً خلوا من العنصر الانساني اللصيق باللغة. تصور على المسرح فلا احد يتكلم الفصحي، او سكيراً يتكلم الفصحي او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحي. او نجيب حنكش يقص اقاصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغة الزمخشري، وسعید فريجہ في نکات يقصها بالفصحي، او المجالات المصرية تنقل كلام «ابن البلد» الى الفصحي!



القسم الثالث
اللهجة وأسلوب دراستها



فوائد دراسات اللهجات:

تعنى الأمم الراقية بدراسة اللهجات الإقليمية وتحرص على تسجيلها وضبط أحكامها وحفظ نماذج أدبية منها ، كل ذلك حباً بالبحث والكشف . وأفضل الدرس ما ليس له غاية نفعية مادية بل ما كانت غايته ذاته . هذا النوع من الدرس الأكاديمي لا يطلب جزاء ولا يسعى في مغنم ، إنما يهدف إلى معرفة الحق وإلى اكتشاف المجهول . وهل أفضل من معرفة الحق وتكتشف المجهول جزاء تجزى به العقول الشغوفة التواقة إلى المعرفة ؟

غير أننا في هذا الشرق العربي نعيش فترة تتميز بطفيان المادة . قيمة الأشياء عندنا تقاس بقدر نفعها ، وأهميتها بقدر تماستها بجيانتنا المادية . فإننا لم نبلغ بعد ، حتى في الجامعات ، مواطن الفكر ، مرتبة من التجرد تدفعنا لدرس الأشياء لذاتها . ولكن إن كان بينما من يطلب أجراً أو يسأل عن غنم في درسه اللهجة فإني أرى في درس اللهجات الإقليمية ، عدا عن لذة المعرفة للمعرفة ذاتها ، ثلث فوائد :

أولاً : إذا كنا نسلم أن اللغة كائن حي يخضع لنوايس الحياة من نمو وهرم فليس أفضل من درس اللغة الحية (العامية) درساً موضوعياً لفهم النوايس التي تعمل للحياة والنمو والموت . وذلك لأن العامية - عامية أي شعب - لغة حرة متطرفة ، والفصحي - فصحي أي شعب - لغة كتابية مقيدة بقواعد ثابتة ومتسيّج حولها بسياج شديد .

ثانياً: نحن من الذين يؤمنون أن في العاميات أدباً شعبياً غنياً ازدرته الاستقرارية الفكرية. ولكنه أدب منشق عن روح الشعب وأحساسه. قد تكون الصياغة فيه بدائية لكن الصور والمعاني جليلة. هذا الأدب في صفوته غني بصوره، بنكاته، بدعابته، بأمثاله وأقاصيصه وخرافاته، وهو ذخيرة ضائعة ومن الحمق أن يظل جوهره في التراب.

يشكوا الناس من جفاف في الأدب العربي، من استقراريه أبعدته عن عامة الشعب. وعندنا أن في الأدب العامي مادة للشعر والقصة والموسيقى. وإذا نحن حرصنا على درس هذا الأدب وجمعه وتنقيته فإننا قد نغنى أدبنا.

ثالثاً: ونعتقد أيضاً أن في العامية مظاهر لغوية، صرفية و نحوية، ومعجمية، حرية بالدرس. وقد يكون في درسها إغناء للغتنا الفصيحة. إن نظرية القدامي والمحدثين إلى أن العامية لغة رديئة ركيكة، وإلى أنها تختلف وانحطاط أفسدت على الناس تفكيرهم اللغوي. هل استوعب المعجم العربي جميع المفردات العربية؟ هل اعترف واضعو قواعد الصرف والنحو بصحة جميع المظاهر اللغوية؟ نحن نعتقد أن لا المعجم ولا كتب القواعد استوعبت جميع المفردات وكافة القواعد. وقد يكون في درستنا مفردات العامية ما يعني معجمنا - كما فعلنا عند دراستنا مفردات اللهجة اللبنانية - وفي درستنا قواعدها الصرفية والنحوية ما يشجعنا على التيسير والتبسيط.

الأسلوب

قبل البدء بدرس لهجة محاكية ينبغي للباحث أن يكون موقفه من عمله موقف العالم المتجرد عن كل غرض أو هوى. ينبغي له أن يكون أسلوبه الأسلوب العلمي الدقيق، لأن نتائج كل نشاط عقلي رهن ببلغ تملّك الموضوع مشاعر الباحث وعقله، ويبلغ الأمانة والدقة في الأسلوب المتبّع. نقول هذا لأننا نعلم أن بعض الناس ينظرون إلى اللهجات المحكية وعلى عيونهم نظارات ملونة. فهي ليست لغة، هي لهجة ركيكة تتميز بالرطانة والعمجمة، سقيمة في تركيبها، فقيرة في معجمها، سخيفة في أدبها، سمجة في روحها. فإذا بدأ الباحث وهذه نظرته مال عن غير وعي إلى إثبات ما علق بذهنه عن اللهجـة.

قلنا سابقاً إن درس اللغة في طريقه إلى كينونته على دقيقاً يخضع لقوانين العلم المطبق في حقول أخرى: مراقبة ووصف وتدوين وتجربة وافتراض وبرهنة ثم إثبات أن التجارب تؤيد صحة الافتراض بإعلان النتائج قوانين ونوماميس عامة. وعلى دارس اللهجة أن يتقيّد بالأسلوب، فلا معطيات مقررة ولا نتائج مسلم بها مسبقاً.

وقد يكون من المبتذل، ونحن بقصد الأسلوب، أن نذكر بأن علم الفونتيك (علم الصوت اللغوي) جزء أساسى من علم اللغة العام (General Linguistic) إذ أن على دارس اللهجة أن يدونها ويضبط أحکامها الصوتية والتركيبية، وقد يصعب عليه الأمر إن لم يكن ملماً ولو إلاماً بعلم الفونتيك.

على أذنه أن تكتسب مراناً في السمع لعرفة طبيعة الصوت ومحرجه، وعلى لسانه أن يكتسب مراناً في إعادة الصوت لكي يدون ما يسمعه فونتيكياً برموز يكون قد اختارها لنفسه، أو برموز من وضع غيره.

وقد تعد مسألة اكتساب المران في السمع والنطق أمراً ثانوياً إذا اعتبرنا مسألة أخطر شأنها وهي تعليم كثير من المظاهر الصوتية والإعرابية، فإنها يمكن أن تكون عند التحليل الأخير إما تطوراً صوتياً أو اخلاقاً صوتياً. كثير من قواعد الإعلال والإدغام وسقوط الإعراب يمكن أن يفسر فونتيكياً، فعلم الفونتيك إذا أمر لا مفر منه في كل دراسة لغوية.

ويحسن أيضاً، قبل الشروع بدرس لهجة ما، أن ننظر فيها سبق من دراسات حول الموضوع نفسه. فإن الفرنجية درسوا لهجات عربية عديدة وخير للمقدم على درس كهذا أن يلم بما كتب في الموضوع. فقد يكون عنده ما يضيفه أو يعدله، وقد لا يكون هناك متسع للزيادة. فإن الدكتور لور Lohr درس لهجة القدس^(١) والدكتور ماتسون^(٢) درس لهجة بيروت، ودرس المنسينيور فغالي لهجة قرية لبنانية، كفرعبيدا^(٣). فإذا تصدى أحدهنا لدرس هذه اللهجات وجب عليه أن يقرأ هذه أولاً كي لا يبذل جهداً في غير سبيله.

المخطوة الأولى

يتربّ على ما ذكرناه آنفاً أن تكون الخطوة الأولى عند دراسة اللهجة إعتراف من قبل الباحث أنها لغة قائمة بذاتها لها نظامها الصوتي (Fonology) ونظامها المقطعي (Morphology) ولها صرفها (Syllabic Structure) ولها نحوها

Max Lohr: Der Vügararabische Dialect Von Jerusalem. Giessen, 1905. (١)

Emmanuel Mattson: Etude Phonetique Sur le Dialect Arabe Vulgaire De Beyrouth. (٢)

Uqsal, 1910.

Michel T. Feghali: Le 'Parler De Kfar, Abida. Paris 1919. (٣)

). ولما معجمها وبيانها وأدبهـاـ . وـهـمـ الـبـاحـثـ أـنـ يـدـرـسـ هـذـهـ الـلـغـةـ درـساـ وـصـفـياـ تـقـرـيرـياـ (Descriptive Analysis) لا درـساـ فـلـسـفـياـ ، أيـ ذـلـكـ الـدـرـسـ الـذـيـ منـ شـائـنـهـ الـبـحـثـ عـنـ الـعـلـةـ أـحـيـاـنـاـ إـنـاـذاـ أـصـرـرـنـاـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ الـعـلـةـ وـالـنـتـائـجـ نـكـونـ قـدـ خـرـجـنـاـ عـنـ نـطـاقـ الـبـحـثـ الـعـلـمـيـ إـلـىـ دـائـرـةـ الـخـدـسـ وـالـتـخـمـينـ .

يشـكـوـ النـاسـ ، مـدـرـسـونـ وـدارـسـونـ ، مـنـ تـعـقـيـدـ النـحـوـ الـعـرـبـيـ ، وـمـرـدـ هـذـهـ الشـكـوـيـ إـلـىـ أـنـ نـحـوـ الـعـرـبـيـ نـشـأـ وـازـدـهـرـ إـبـانـ بـلـوغـ عـلـمـ الـكـلـامـ ذـرـوـتـهـ . فـإـنـ مـفـكـريـ الـمـسـلـمـيـنـ جـهـدـواـ فـيـ أـنـ يـوـقـّـفـواـ بـيـنـ قـوـانـيـنـ الـمـنـطـقـ وـالـفـلـسـفـةـ الـإـغـرـيـقـيـةـ وـبـيـنـ الـعـقـائـدـ الـدـيـنـيـةـ . فـيـ ذـاكـ الـجـوـ الـفـلـسـفـيـ وـضـعـتـ أـحـكـامـ النـحـوـ وـقـوـانـيـنـ الـبـلـاغـةـ وـالـفـصـاحـةـ . وـأـثـرـ فـلـسـفـةـ الـعـلـةـ وـالـمـعـلـولـ ظـاهـرـ فـيـ عـلـمـ النـحـوـ ، زـيـدـ فـيـ جـلـةـ «ـ زـيـدـ غـنـيـ »ـ مـرـفـوعـةـ بـالـابـتـداءـ وـهـوـ عـاـمـلـ مـعـنـوـيـ ، وـزـيـدـ فـيـ جـلـةـ «ـ كـانـ زـيـدـ غـنـيـ »ـ مـرـفـوعـةـ عـلـىـ أـنـهـ اـسـمـ كـانـ ، وـزـيـدـ فـيـ جـلـةـ «ـ إـنـ زـيـداـ غـنـيـ »ـ مـنـصـوبـةـ عـلـىـ أـنـهـ اـسـمـ إـنـ ، وـالـمـاضـيـ مـبـيـنـ لـسـبـبـ ، وـالـمـاضـيـ مـعـرـبـ لـسـبـبـ ، وـمـسـاجـدـ لـأـنـونـ وـلـاـ تـجـرـ بالـكـسـرـ لـسـبـبـ ، وـجـعـ الـمـؤـنـثـ السـالـمـ يـنـصـبـ بالـكـسـرـةـ لـسـبـبـ ، وـقـدـ كـثـرـتـ الـعـلـلـ وـتـنـوـعـتـ الـأـسـابـبـ . وـقـدـ عـزـواـ ، فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـأـحـيـاـنـ ، الـعـلـةـ لـأـثـرـ كـلـمـةـ فـيـ كـلـمـةـ . وـلـكـنـ فـرـقاـ مـنـ الـلـغـوـيـنـ لـمـ يـرـضـوـ بـهـذـاـ التـعـلـيلـ . وـقـدـ أـلـفـ اـبـنـ مـضـاءـ الـقـرـطـيـ كـتـابـاـ سـهـاـ «ـ الرـدـ عـلـىـ النـحـاةـ »ـ حـاـوـلـ فـيـ هـدـمـ نـظـرـيـةـ الـعـاـمـلـ . الـعـاـمـلـ فـيـ الـلـغـةـ هـوـ اـلـاـنـسـاـنـ ذـاتـهـ ، وـابـنـ مـضـاءـ الـقـرـطـيـ يـعـدـ فـيـ طـلـيـعـةـ عـلـمـاءـ الـلـغـةـ الـمـحـدـثـيـنـ ، وـلـهـ الـفـضـلـ فـيـ وـضـعـ التـوكـيدـ عـلـىـ اـلـاـنـسـاـنـ . درـسـ الـلـغـةـ درـساـ وـصـفـياـ تـقـرـيرـياـ يـقـيـنـاـ مـنـ مـزاـلـقـ الـخـدـسـ .

المخطوطة الثانية

جمع مـادـةـ لـغـوـيـةـ مـنـتـخـبـةـ مـنـ الـبـقـعـةـ الـمـنـوـيـ درـسـهـاـ لـغـوـيـاـ . قدـ يـكـونـ دارـسـ الـلـهـجـةـ مـنـ أـبـنـاءـ الـلـهـجـةـ فـيـعـتـمـدـ فـيـ جـمـعـ مـادـتـهـ عـلـىـ ماـعـنـدـهـ مـنـ ذـخـيرـةـ لـغـوـيـةـ . وـلـكـنـ يـخـشـيـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـ أـنـ تـكـوـنـ لـغـتـهـ قـدـ تـأـثـرـتـ بـثـقـافـتـهـ وـبـالـبـيـئـةـ الـلـغـوـيـةـ

التي عايشها في المدينة، أو في الجامعة، أو في إقامته بعيداً عن بلدته. فإن هذا الاحتكاك بلهجات أخرى وهذا الابتعاد عن البلدة من شأنه أن يترك أثراً في بعض العناصر اللغوية والمظاهر الصوتية. فإني نشأت في قرية لبنانية درزية وكانت لهجتي الأولى لهجة درزية بحتة. أما الآن فإني لا أعتبر خير مثال على صفاء اللهجة الدرزية، فإن ثقافي اللغوية وسكنائي في المدينة واغترابي إلى العراق وكوني مدرساً يحرص على صفاء لغته وحسن أسلوبية، جميع هذه، تجربتي من الصفات اللغوية التي يجب أن يتصرف بها الدرزي القمح. وإني إذا أردت أن أدرس لهجة الدروز فعليّ أن أعتمد درزيّاً قروياً يمثل في لغته لهجة الدروز الصرفة.

جمع المادة اللغوية يتطلب (أ) مخبراً Informer
(ب) مادة
(ج) أسلوبية

(أ) أما المخبر فيجب أن يكون خير مثال على صفاء اللهجة. وخير من يمثل هذه اللهجة أبناء القرية أنفسهم رجالاً ونساءً وولدانها. على دارس اللهجة أن يكسب ثقة المخبر. فإن وجود غريب في القرية يصاحب آلة للتسجيل ويرغب في تسجيل كلامهم مثار للشك والتساؤل. عليه أن يوضح لهم الغاية من تسجيل كلامهم، وعليه أن يفهمهم أن التسجيل يجب أن يكون طبيعياً فلا تكلف ولا تعمد ولا حذقة. ذلك لأن ابن القرية يشعر عند تكلمه مع ابن المدينة أن عليه أن يتكلم كلاماً فصحيحاً مهذباً. وعلى المسجل أن يتنبه إلى هذا الميل إلى التصنّع في الكلام. يجب أن يظل المخبر على سجيته وعليه أن ينسى أنه يتكلم في حضرة ابن المدينة أو أمام آلة تسجيل.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن البقعة الجغرافية المنوي دراستها لغوياً قد تكون مأهولة بأكثر من أقلية دينية. ويلاحظ أن الفروقات الدينية يتبعها فروقات اجتماعية ولغوية. ويحسن بالمسجل أن ينتقي مخبراً من أواسط مختلفة إذ قد تكون في هذه الفروقات الاجتماعية اللغوية فوائد جمة.

(ب) أما المادة فقد تكون أحاديث وأقصاص وأشعاراً عامية وخرافات ومعتقدات وعادات. وقد يترك المسجل الخيار للمخبر أو المخبرين ، وقد يقترح عليهم الموضوع. ويحسن بالمسجل أن يجري امتحاناً قبل التسجيل ليري أن الحديث طبيعي لا تكلف فيه ولا تصنع.

(جـ) أما الأسلوب فالتسجيل الآلي. وقدماً كان دارس اللغة يلجأ إلى التسجيل المبني على المشافهة. كان الدارس يصنفي إلى الحديث ويدونه برموز فونتikiة - ولكن العلم قد أمننا بالآلة المسجلة وكفانا النقص الذي يعترى التسجيل الفونتيكي بالمشافهة. فقد تخون الأذن صاحبها فيفوته أصوات ، وقد تخونه أعضاء النطق فيعجز عن تردید ما سمعه بدقة وضبط. أما الآلة الحديثة فإنها تعيد الصوت كما يتلفظ به المخبر وبكل دقة وضبط.

وليس لنا أن نتبسط في وصف الآلة المسجلة فإن أنواعها كثيرة، وأحجامها عديدة ، والتنافس على صنعها شديد. فترى أنواعاً مختلفة بأشكال مختلفة وبأسعار متفاوتة. منها ما هو صغير الحجم رخيص الثمن (٥٠ - ١٥٠ جنيه مصرى) خفيف الحمل ، ومنها الكبير لدور الإذاعة والمختبرات. ومن حسنات التسجيل على الشريطة تمكين الدارس من سعى اللهجة مراراً وتكراراً، ومن حسناته أيضاً تسجيل أشرطة عديدة لأفراد عديدين يمثلون مختلف الطبقات الدينية والاجتماعية. فلا يبقى على دارس اللهجة إلا أن يضع شريطه في الآلة ويجلس للإصغاء وتدوين الملاحظات.

المخطوة الثالثة

دراسة اللهجة دراسة استقرائية (descriptive) وصفية تقريرية (inductive) بناء على ما يتجمع عند الدارس من مادة سجلها أو جعلها بطريقته الخاصة. ويحسن أن تكون دراسة اللهجة على مراتب:

(أ) مرتبة الصوت Phonology

(ب) مرتبة الصرف Etymology

(ج) مرتبة التركيب أو النحو Syntax

ولا يقف حد المراتب عند هذا العدد. فلذلك أن تدرس اللهجة أيضاً على مرتبة المعجمية (Lexical level) ومرتبة التركيب المقطعي (Syllabic structure) ومرتبة الأسلوب ويدخل فيه نواحي البيان والبلاغة، وذلك أن تقتصر على المراتب الأساسية الثلاث التي ذكرناها أعلاه.

(أ) مرتبة الصوت

لكل لغة أصواتها اللغوية التي يطلق عليها مصطلح علمي «فونيم» وجمعها فونيمات تمييزاً لها عن سائر الأصوات الطبيعية التي لا تدخل في نظام أصوات اللغة. ليس كل صوت هو صوت لغوي. ولا يتورى من أن عدد فونيمات اللغة يتفق عدداً مع حروف هجاء تلك اللغة. كلا. فإن فونيمات اللغة أكثر عدداً من حروف هجائها. فالإنكليز عندهم فونيم ث ويرمزون إليه بـ Th وعندهم فونيم ذ ولا رمز خاص به. ناهيك عن أن للفونيم الواحد ظللاً من التغييرات الطفيفة التي تطرأ عليه تبعاً لوقوع حرف ما قبله أو بعده. إذاً وضع رموز فونتيكية شاملة لنقل أصوات اللغة بدقة وضبط، أمر ضروري جداً.

وتجدر الإشارة إلى أن الحرف العربي الخالي من الحركات المصوتة لا يصلح رموزاً فونتيكية دقيقة لنقل أصوات لهجة عربية أو لغة غير عربية، وذلك لأن حركات اللغة العربية الأصلية ثلاثة: قصيرة وهي a.i.u طويلة وهي ā.ī.ū ولكن اللهجات العربية المحكية واللغات الأجنبية غنية في نظامها الصوتي فهناك ة و ٤ و ٥ وهناك أنواع مختلفة للفظ ء فإنه في سار غير في صار و ٤ في سور غيرها في صور. فكيف نستطيع أن ننقل هذه الأصوات بالحروف العربية وبالحركات العربية؟ إن هذا غير ميسور. علينا هنا أن نلجأ إلى الحرف اللاتيني إلا إذا أردنا أن نضيف إلى الحروف العربية رموزاً جديدة

لفونيات لا وجود لها في الفصحي.

أما الأنظمة المتبعة في نقل الأصوات اللغوية من لغة إلى أخرى - ويسمونها Transliteration - فكثيرة ومتباعدة. لكل أمة نظامها ، أو بالأحرى لكل مؤسسة علمية نظامها الخاص . فالموسوعة الإسلامية لها نظامها ، وقاموس أوكسفورد له نظامه ، والجمعية الجغرافية الملكية لها نظامها ، و مجلة Z.D.M.G. لها نظامها ، وغيرها كثيرة . غير أن أفضل هذه الأنظمة جيئاً في نظرنا هو النظام المعدل^(١) الذي أقرته جمعية fonetik الدولية : The International Phonetic Alphabet فإنه نظام شامل يستطيع المرء بواسطته أن ينقل كل صوت لغوي في العالم . ومن جلتها اللهجات العربية .

وقد لا يرضيك هذا النظام أو ذاك بل تفضل أن تضع نظامك الخاص . فإني لا أعرف دارساً للهجة لم يضع نظامه الخاص . ولا اعتراض على هذا شريطة أن تضع ثبتاً به في أول الدراسة ، وشريطة أن تتبعه بدقة ونظام كي لا تشوش على القارئ . ومن قبيل الاقتراح فقط ثبت لك نظامنا الخاص في نقل اللهجات بالحرف اللاتيني :

(١) عدل سنة ١٩٥١.

رموز صوتية

اقتراح

الحروف الصامتة Consonants	مقابلة بالعربي	الرمز	مقابلة بالعربي	الرمز
i or c	حـ (حرف همزة اليوناني)	J or gh or غ	as it is in Arabic	ع
b	ب	f	ف	
t	ت	q	ق	
o or Th	ث	k	ك	
j	ج	l	ل	
g	ج مصرية	m	م	
h	حـ	n	نـ	
x or Kh	خـ	h	هـ	
d	دـ	w	وـ	
d oe dh	ذـ	y	يـ	
r	رـ	zi	ـى =	
z	زـ	aw	ـو =	
s	سـ			
š or sh	شـ			

S	ص
d	ض
t	ط
Z or z	ظ
ç or c <u>ع</u> as it is in Arabic	

الحروف المصوّتة

Vowels

القصيرة		الطوبلة	
a	في مثل درسَ <i>daras</i>	â	ba' في مثل باع
i	في مثل ليس <i>libs</i>	î	tîn في مثل ثين
u	في مثل ربع <i>rub</i>	û	rûs في مثل رُوس
e	في مثل رايح <i>râyeh</i>	ê	fêن في مثل فِين
ö	في مثل كتاubbkon <i>kitaäbkon</i>	ô	lôm في مثل لون

ملاحظة عن الحروف المصوّتة

من المعروف أن هذه الحروف أكثر من لفظ واحد فإن *a* في كتاب، سامع، رايح ماضي مختلف. فانها في كتاب وسامع مالة الى حرف *e* بينما في رايح وماضي مالة إلى التفخيم. وعليه يجب على دارس اللهجة أن يضع لـ *a* المالة رمزاً وللمفخمة رمزاً آخر هكذا:

ة (على سبيل الاقتراح)

وكذلك إذا لحظ دارس اللهجة أن هذه الرموز لا تكفي للدلالة على حركات اللهجة عليه أن يضيف إليها رمزاً أخرى أو يكتفي بهذه مع إضافة

فارق كما هو متبع في كتب المستشرقين الذين درسوا اللهجات.

إن دراسة اللهجة في هذه المرتبة، مرتبة الأصوات، تتناول أخطر ناحية في اللغة وأكثر الظواهر تعقيداً، وذلك لأن اللغة مجموعة أصوات تتعرض للتغير الدائم. وأول خطوة في هذه المرتبة تقسيم الأصوات إلى قسمين طبيعيين: الحروف المضوطة والحرروف الصامتة فيصف طبيعتها ومخارجها وما يطرأ عليها من تغيرات تبعاً لوقعها في الكلمة وتبعاً لما يسبقها ولما يتلوها من حروف. ثم يدرس قضية النبرة (accent) التي لم يعرها لغويو العرب أقل انتباها فإنها على جانب من الأهمية وذلك لأنثرها في طول الحركة وقصرها واحتلاسها.

(ب) مرتبة الصرف

وتستعمل كلمة الصرف هنا بالمعنى الذي تتضمنه اللفظة الغربية Morphology أي العلم الذي يعني بالشكل والبناء وبالتغيرات التي تطرأ على الكلمة المفردة من سابقة (Prefix) وواسطة (infix) ولاحقة (suffix) ومن تصريف مع الضمائر ومن إعلال وإدغام. هذه الظواهر تقع في حقل الشكل والمorphology (morphology). فإذا كان درس اللهجة في هذه المرتبة يتناول الكلمة المفردة وجب علينا إذن أن نعيد تقسيم الكلمة على أسس جديدة. ونحن نؤثّر تقسيم الكلمة المفردة إلى ستة أبواب:

(١) الفعل

(٢) الإسم

(٣) الصفة

(٤) الضمير

(٥) الظروف

(٦) الأدوات^(١)

ولا بأس في إسقاط البابين الآخرين ، الظرف والأداة ، في هذا الطور من الدراسة وإرجائهما إلى مرتبة التركيب (النحو) وذلك لأن أكثر الظروف مبنية ، وجميع الأدوات مبنية ، ومعنى هذا أن شكلها لا يتغير فلا تدخل في باب الصرف (morphology) لأن علم الصرف يعني بتغيير الشكل ، وأشكال هذه لا تتغير ، إنما عملها في غيرها ، في التركيب .

ولا يسعنا التبسيط في درس هذه الأبواب لأننا في معرض درس الأسلوب . ولذلك نكتفي بمخطط لدرس الفعل يكون نمطاً يقاس عليه سائر الأبواب . فإني إذا أردت درس الفعل ، في مرتبة الصرف^(٢) فإني أدرس التواحي التالية :

(أ) أوزان الفعل

(ب) تصريف أوزان الفعل ماضياً ومضارعاً وأمراً .

(ج) ما يشتق من الفعل : اسم الفاعل والمفعول واسم المكان والزمان والآلة والمصدر .

ونقتصر على ذكر أوزان الفعل في لهجة قريتنا (رأس المتن) وهي قرية لبنانية أكثريّة ساكنتها من الدروز . فقد وجدنا من دراسة نصوص جمعناها ، أن أوزان الفعل في لهجة هذه القرية اللبنانية هي :

١ - المجرد الثلاثي فعل : كتب شرب مشى نسى (مشى نسى) قام ، عَدَ رمى (رمى) قرأ .

٢ - فعل مثل علم .

٣ - فاعل مثل ساير جاهر .

(١) يدخل في هذا الباب جميع أنواع الحروف .

(٢) لأن درس الفعل يدخل أيضاً في مرتبة التركيب (النحو) .

٤ - افعل لا وجود له بل يلاحظ أن كل افعل في الفصحى يصبح فعل في هذه اللهجة مثل تلف طعم تعب تقن (بدلاً من أتلف وأطعم وأتعب وأتقن).

٥ - ت/ فعل مثل تكلم.

٦ - تفأَّل مثل تقاتل.

٧ - أتفَّعل يصبح نفعَل مثل نُكَسَّر ونجَّار.

٨ - إفتعل يصبح فُتَّعل مثل خَتَّال.

٩ - افعل فقط من الألوان ويصبح فعل مثل حرّ.

١٠ - استفعل ويصبح سْتَفَعَل مثل سَتَّحَدَم.

١١ - الأفعال الرباعية وهي كثيرة في لهجة لبنان وقد وجدنا أن المجرد الثلاثي يصبح رباعياً بإضافة حرف إلى الثلاثي. بعض هذه الحروف التي تزاد: ئ و ن ر م ب ش فيصبح لدينا أوزان مثل: فَيَعْلُ (أو فَعِيل) فَوَاعْلُ (أو فَعُول) فَنَفَعَلُ، فَرَعَلُ، فَبَعَلُ (أو فَعَيل مثل غلبط) شَفَعَلُ مثل شَقْلَب وشَلَهَب. وهناك أوزان أخرى مثل فَعْلُنْ بإضافة التون في آخر الفعل مثل رَوْحَنْ ، ثُرَوْحَنْ عَشَوْنَ.

ثم إن هذه الأوزان يجب أن تدرس عندما تصرف مع الضمائر ماضياً ومضارعاً أو امراً. ثم يجب النظر في المشتقات: اسم الفاعل والمفعول والمكان والزمان والآلة والمصدر من جميع هذه الأوزان. ويجب أن تكون هذه الدراسة مبنية على شواهد من المادة المسجلة أو المسموعة.

(جـ) مرتبة التركيب أو النحو

وجوه اللغة التركيب، توضع المفردات وتهرم وتموت ويحل محلها مفردات جديدة ولكن العنصر الثابت في اللغة التركيب. تستطيع أن تتعلم مفردات لغة أجنبية كما أثبتتها القاموس ولكنك إذا لم تتعلم قواعد التركيب فإنك لا

تستطيع أن تقول شيئاً في هذه اللغة سوى الإشارة إلى الأشياء مع ذكر الألفاظ الموضوعة لها، وذلك لأنك لا تعرف التركيب. إذاً التركيب جوهر اللغة. إنني إذا أردت التركيب (النحو) في لهجة ما فإني أتبع المخطط التالي:

(أ) صيغ الفعل الزمنية: الماضي وال الحال والاستمرار والمستقبل.

ويدخل في هذا الباب استعمال اسم الفاعل للدلالة على الزمان مثل ماضي وراكب.

(ب) الجملة البسيطة والمركبة (الإخبارية والإنشائية).

(ج) الاستفهام والنفي والتوكيد وأدواتها.

(د) المطابقة: الفعل لفاعله والصفة لموصوفها، والمفاضلة مثل غني، أغنى من ...، أغنى الناس.

(هـ) الموصول.

(و) أفعال مساعدة.

(ز) الظرف.

(ح) أسماء العدد وأحكامه.

(طـ) الأدوات ومعانيها واستعمالها.

وهذا مخطط عام لدراسة اللهجة. وقبل أن ننهي الكلام عن الأسلوب يذكر الباحث انه قد يتناول في درسه مرتبة أخرى من مراتب درس اللغة فقد ينظر في معجم اللهجة، وقد ينظر في أساليب البلاغة فيها، وقد يعني بأدبها وبجمعه ونشره، وقد يكتفي بالناحية اللغوية الصرفية كما ذكرنا في المخطط. ولا يغرين عن البال أن كل ناحية من نواحي اللغة، لا بل كل ظاهرة بسيطة تتطلب تقليلصاً وجهداً. فإننا نعرف علماء حصروا جهدهم في ناحية ضيقة كأن يدرس الواحد منهم الفعل فقط أو الإسم أو حرف الهمزة

وما يطأ عليه من تقلبات. إذاً يحسن بدارس اللهجة أن يكبح جماح طموحة فيقصر درسه على ناحية محددة فيدرسها درساً مركزاً لا يبقى معه مجال لمسترزيد.

جغرافية اللهجات

ومن الدراسات الطريفة المتعلقة بدراسة اللهجات وضع خرائط لغوية تبين الفروقات اللغوية التي تتميز بها بقعة عن أخرى. ففي لبنان مثلاً طريقتان للتلفظ بحرف القاف. منهم من يلفظه على طريقة العربية الفصحى ق. ومنهم من يلفظه همزة فيقولون «إِلْتُو» (أي قلت له) و «قَلْتُو». وهناك ظاهرة أخرى في لبنان وهي أن بعض المسلمين في بعض المناطق يلفظون القاف كافاً حتى في قراءة العربية الفصحى! وبعض اللبنانيين، عند تعبيرهم عن صيغة الزمن الحالي عندما يكون الفعل أو الحدث مستمراً ويقابله (Present Continuous) يقولون «عُمْ يأكل» ولكن بعضهم يقول «مِنْ يأكل» أي هو في سياق عملية الأكل. فإذا أراد دارس اللهجة أن يبين للناس مواطن القاف الفصحى ومواطن القاف المتغيرة إلى همزة، ومواطن «عُمْ يأكل» ومواطن «مِنْ يأكل»، فليس عليه إلا أن يأخذ خريطة للمنطقة الجغرافية ثم يبين على الخريطة الواقع التي فيها تبدو الظاهرة اللغوية التي هو بصددها. وقد يرسم خرائط عددها عدد ما يتخذه من مظاهر لغوية انتقاها لنفسه. فقد يأخذ تركيباً غريباً، أو لفظة غريبة، أو أصواتاً لغوية غريبة، ويعقبها على الخريطة. ولن يتم له ذلك إلا بعد أن يكون قد زار المناطق هو بنفسه للتأكد من صحة الأمر. وإننا نتجد في البلدان التي تعنى بدراسة اللهجاتها العامية عدداً كبيراً من الخرائط اللغوية لكل ظاهرة لغوية فريدة. فإنك قد تجد في فرنسا مثلاً خريطة لحرف الراء، حرف الراء حيث يلفظ كما يجب أن يلفظ حرف الراء، وحرف الراء المغير إلى غ. قد يرغب أحدكم في دراسة حرف الجيم مثلاً وكيف يتغير النطق به في مختلف البقاع العربية فتظهر الخريطة وإذا بصر تقع في المنطقة حيث يتلفظ به و وال العراق حيث يتلفظ به زه ولبنان حيث يتلفظ به ز.

اللهجة اللبنانيّة

كان لبنان نهاية مطافًّاً أقليات عديدة، عرقية ولغوية ودينية، نزحت إليه هرباً من اضطهاد، فوجدت في وديانه وجبله حتى تستطيع فيه العيش بأمن وحرية. وقد حافظت هذه الأقليات على عاداتها وشعائرها وطقوسها ولهجاتها. ولذا كان لبنان معرضًّا أزياءً وعادات ولهجات.

وقد مرت هذه البقعة الجغرافية في أطوار تاريخية مختلفة، وعرف أهلها، إلى جانب اللغة الأصلية، لغات أخرى عديدة، مصرية، حثية، بابلية، آشورية، فارسية إغريقية لاتينية، عربية، تركية، ولكن تعاقب هذه اللغات لم يكن لينازع اللغة الأصلية الآرامية (باستثناء العربية التي حلّت محلّها تدريجياً) التي لا تزال آثارها في أسماء القرى والمدن وفي اللهجة العربية المحكية في لبنان.

والآراميون مجموعة قبائل سامية توطنت سوريا والعراق وشمال الجزيرة العربية، وجموعهم تشكل الموجة السامية الثالثة التي اجتاحت الهلال الخصيب، طلباً للهاء والمرعى. وأول ما نلتقي بهم في التاريخ نجدهم بدأوا رحلاً في شمالي الجزيرة العربية. ثم إنهم حوالي 1500 ق.م نزلوا شواطئ الفرات الأوسط ومن هناك اتجهوا غرباً نحو سوريا ولبنان. ولم يكونوا قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل متحالفة، منها قبيلة الخبري التي يرد ذكرها كثيراً في رسائل تل العمارنة، تلك الرسائل التي بعث بها أمراء سوريا ولبنان وفلسطين إلى

امتحوت الثالث والرابع طلباً بالإمداد العسكري لصد هجمات البدو الزاحفة من الشرق والجنوب. ولكن مصر آنذاك كانت غارقة في نزاع ديني.

وقد أسس الآراميون دويلات أو إمارات عديدة شأنهم في ذلك شأن الموجات السامية الأخرى التي لم تستطع أن تتوحد، فكان العنصر الصحراوي القبلي عميق الأثر في الحياة السياسية. وتذكر لنا أسفار التوراة - والتوراة مصدر تاريخي قيم لدراسة الشرق الأدنى القديم - جملة من هذه الدوليات منها آرام نهرايم (أي العراق القديم) وآرام دمشق (أي سوريا وقد سميت بالعاصمة دمشق) وآرام صوبا في سوريا المتوسطة وآرام معكة في فلسطين. وليس لنا أن نساير هذه الدوليات في تاريخها السياسي، إنما يهمنا من أمرها ذكر حقيقتين: أولاً إن الآراميين هم الذين نشروا الهجاء الذي وضعه الفينيقيون في جميع أنحاء الشرق الأدنى فإن لغتهم حوالي ٥٠٠ ق.م. أصبحت اللغة العامة الرسمية (Lingua Franca) في جميع أقطار الشرق الأدنى القديم. فقد حلّت محل الكعنانية والعبرانية. وكانت لغة السيد المسيح على الأرض، الآرامية لا العبرية، كما يظهر من النتف القليلة التي نقلت عن لسان السيد المسيح. وقد جعلها الفرس اللغة الدبلوماسية. ثانياً عندما تنصرت هذه الشعوب الآرامية - ويدعون أن تنصرهم حدث بعد موت المسيح مباشرة - غيرت اسمها من شعوب آرامية إلى «سورية» ومن لغة آرامية إلى لغة «سورية» وفي مصطلحنا اليوم سريان وسريانية. وذلك لأن هذا الإسم «آرامي» كان يذكّرهم بوئبيتهم، وفي العبرية لفظة آرامي معناها وثني. وقد كان تنصرهم سبباً في قوعهم تحت تأثير المئوية فكانت الإغريقية واللاتينية من اللغات التي تدرس في مدارسهم. وقد ترجموا إلى السريانية كثيراً من كتب الرياضيات والطب والفلسفة. وفي العصر العباسي لعبوا دوراً هاماً في الترجمة وفي نقل الفكر الإغريقي إلى اللغة العربية. غير أنهم في القرون الثلاثة أو الأربع السابقة لظهور الإسلام انقسموا على ذواتهم حول آراء دينية لاهوتية تتصل بطبيعة المسيح ومريم العذراء وطقوس الكنيسة فانقسموا إلى

كنسيتين شرقية وغربية يعقوبية. وكان لهذا الانقسام الديني أثره السياسي واللغوي.

إن لغة لبنان قبل الفتح العربي كانت لهجة سريانية أي آرامية، وطابع هذه اللغة ظاهر في أسماء القرى والمدن وفي مفردات اللغة، وأهم من هذا كله في تركيب اللغة.

يظهر أثر الآرامية في لهجة لبنان في: لفظ الحروف فحرف الذال أصبح دالاً فيقال كداب^(١)، وكل ثاء أصبح تاء. وأدخلت حروف مصوته جديدة هي ظهرت في القصیرتان والطويلتان.

وفي الضمائر فإن اللبناني عندما يقول (ena) فإما هو في الواقع يلفظ (ena) السريانية، وعندما يقول كتابن كتابهن (أو كتابن) وهي (هم) فإنه يتلفظ بهذه الضمائر كما كانت في اللغة الأصلية، إذ يصعب على أي شعب يتخذ لغة الفاتح أن ينسى النهاذج اللغوية الأصلية في لغته.

الفعل: ويظهر أثر الآرامية في الفعل، في كسر حرف المضارعة وفي صيغة الأمر وفي حركة الناقص في صيغة الماضي (رمي غفى).

المفردات: ويظهر أثر الآرامية في كثرة عدد المفردات الآرامية الباقية في اللغة المحكية فان عددها يصل إلى المئات وهو جزء من صميم الحياة اللبنانية القروية.

التركيب: أما أهم أثر للآرامية فهو في التركيب. وقد قلنا سابقاً إن التركيب جوهر اللغة. فإليك عندما تقرأ نصاً سريانياً وتترجمه ترجمة حرافية يتبادر حالاً إلى ذهنك التركيب اللبناني العامي. ومن هذا التركيب ما يعرف بلغة أكلوني البراغيث فإن هذا التركيب سرياني فصيح وعليه نقول في لبنان أجوا الضيوف وطعموني الجيران عنب. وعندما يقول اللبناني شفتوا خليك

(١) حسب نطق الموارنة في شمال لبنان.

وأكلتها للتفاحة فإنه يستعمل مفردات عربية في تركيب سرياني فصيح. وعندما يقول اللبناني بحب أشتغل وبريد آكل ولازم يجي فإن حذف «أن» التي تتوسط بين الفعلين متأثر بالتركيب السرياني.

ولكن، ذكرنا لكم سابقاً، أن علم اللغة الحديث يتغاضى عن معرفة الأسباب والعلل ويترك التاريخ جانباً. هم دارس اللغة وصفها وصفاً استقرائياً تقريرياً، ولذا سنختم أحاديثنا بنماذج من اللهجة اللبنانية نثراً وشبراً، تاركين لكم أمر دراستها على ضوء ما ذكرناه لكم عن أسلوب دراسة اللهجات. ولا بد من الملاحظة أن كتابة أية لهجة عربية بالحرف العربي الحالي من الحروف الم拙وّلة لا تساعد القارئ على قراءتها قراءة صحيحة، وكان الأولى بنا أن نكتبها لكم بالحرف اللاتيني كما اقترنا آنفاً على دارس اللهجة، ولكن خوفاً من مشاكل الطبع سنتبّتها لكم بالحرف العربي.

من «رسائل شمونة»

(نشرت تباعاً في مجلة الدبور الأسبوعية سنة ١٩٢٨)

و«رسائل شمونة» قصة قروية تصور تطور الحياة الريفية والمدنية في لبنان. وهذه القصة مكتوبة باللغة العامية الجبلية، ولكن بما أن كتابة العامية بالحرف العربي أمر غير ميسور فإن القارئ يختار في قراءتها، أهي عامية أم فصيحة؟ وقد اخترنا أن نكتبها كما هي مطبوعة في الكتاب على أن نعيد كتابتها بالحرف اللاتيني لظهور حقيقة النطق الذي أراده المؤلف هنا الخوري الفغالي.

أما القصة فبسطة جداً في حوادثها. تدور القصة حول فتاة يتيمة الأب اسمها شمونة. ترك شمونة القرية رغم إرادة أمها وعمها وتهبط إلى المدينة لتعمل خادمة في بيت من بيوت الأغنياء. وقد كان وقع الحياة المدنية على هذه الفتاة الأممية الساذجة الطاهرة شديداً فلم تقوى على مقاومة التجارب العنيفة التي تعرضت لها. وبعد اختبارات مرّة تعود شمونة إلى القرية نادرة نفسها للخدمة المجانية في المستشفى زهداً في الحياة وتكتفياً عن زلتها.

وأثناء إقامتها في بيروت كانت تبعث برسائل إلى أمها في القرية تصف فيها وصفاً واقعياً الانطباعات التي تركتها المدينة في نفسها. وكانت أمها ترد على هذه الرسائل وتكثر فيها النصح والإرشاد والتحذير من مغبة الاسترسال في حياة المدينة. فجاءت هذه الرسائل سجلاً صادقاً لحياة القرويين في القرية ولحياتهم إذا هبطوا المدينة. وإليكم مثالين على هذه الرسائل: الرسالة الأولى

من شمونة إلى أمها تعلمها أنها أخيراً قررت «السترة» فارتضت أن تتزوج من لبناني عائد من أميركا الجنوبي اسمه «ميك» أما اسمه قبل هجرته فكان «مخنول» وميك كبير السن على شيء من الغنى وطيبة القلب . والرسالة الثانية من أم شمونة وفيها تعبير عن القلق الذي يساورها من جراء التأخر في إخبارها عن يوم العرس وتلح الأم على ابنتها أن تستخير الله ولا تتردد إذ ليس لها الآن إلا «السترة» .

«شمونة مخطوبة»

والدتي الحنونة

مثلياً بتغيب شمس المسا بالضياعة هيك يا والدتي صرت أشعر أن أيام العزوبيّة عم تغيب شمسها.

من اليوم بلشت أشعر بدقة قلب ورجمة بالتفاصيل، وإذا كان الاستعداد للزواج هيك قديش بدها تكون العيشة صعبة فيه.

المثل يقول: لما بتخلق البنت بتبكي عتبة البيت ويتحزن. وكمان يقول المثل: بتخلق البنت وبيخلق هما معاً. الحق مع الأمثال وما في مثل كذب.

البنت بتتتعب أهلها كف ما كانت. إن كانت حلوة بتتعبهم، وإن كانت شنيعة بتتعبهم. بالأول يكون هماها تتزوج ولمن بتتزوج بتتجمع عليها كل المهموم.

رزق الله لمن كنا بنيات صغار ما نفهم بغیر الأكل وشم الهوا. نفهم نعمل من الشراطيط لعب. نفهم بلعبة الحبل، نفهم بلعب اللقوط. خبزنا مخبوز ومويتنا بالكوز.

كبرنا ما شاء الله ولما كبرنا كبر الهم معنا. صحيح لعبنا وصحيحنا وقضينا أيام حلوة لكن بلشت الأيام السوداء.

الخد كان يوم الخطبة اليوم الى كل بنت بتندر نذر حتى توصل لو، وأهلها ما يصدقوا إيماناً يجي ها اليوم. وأنت مقتورة مثل باقي الأمم من وقت ما كبرت وأنت ناطرة هل اليوم - ومن حسب أنيك بدى تكوني أنت ببلاد وأنا ببلاد؟

كنت مفتكرة يوم خطبتي تعزمي القرايب وأهل الضيعة وتعزمي بونا الخوري حتى يصلني على الأوعي. وبيجي عمي بو سركيس يلبسني خاتم الخطبة بيادو. وبتعملني للمعازيم معكرتون وتقدمي لهن تين وجوز. ويبيتدى قول القرادي والمعنى. وبتمسككي ها الكباية وتشريبي عرق كرمال المعزومين، وبترقصي وبتضحكني وبتقولي: «إن شا الله منكافيكم وقت فرحة ولادك، والعزاوي نفرح منهن، وإلى ما عندهن نقشع لن». تاني يوم بييجو بنيات الضيعة وبقلولك شو بدى يا أم شمونة، شو بيلزمك حتى نساعدك؟. هي بتخيط محري وهيدزيك بتحيك خرج يا منديل. كلّو هذا راح كأن ما كان، وبعد جمعة بتصير شمونة كأنها ما كانت. والجازة جنازة. لكن ما لقيت ليلة الخطبة تقيلة لأنّي هيكل كنت منتظرة. ضجكت وتصنعت وعملت حالي مبسوطة، لكن إن ضحكت على العالم بقدر أضحك على نفسي؟

مهما كبرت نفسي بظل أشعر إني زغيرة. مهها تحسنت وتبودرت بقدر شيل تجهود وجي؟ مهها قالوا الناس عنى مليحة وآدمية يا هل ترى بقدر أنك إني ما... بقدر رد حكي الناس عنى؟ آه يا أمي كل شيء بيتعوض، المال بيتعوض، خسارة الأهل والرزق بيتعوض لكن الشرف ما بظن إن خسره حدا بيقدر يعوضو، وخصوصاً البت ما بتقدر تمحي غلطتها.

كل ما شفت شب يما رجال كان لي معو سابق معرفة بمحس كأن حرفة عم تشک في خاصرتني. وصرت شوف إن كل الناس عيون عم تطلع في. كأني بسمعهم عم يقولو: ولّك هي ما كانت صانعة بيت فلان؟ مش هي ال كانت تحاكي الدكنجي؟ هي صفتنا هي نعنا لكن ال بسليني يا والدتي إن

المتلي كتار وكتار إالي وقعوا وقعة أكبر من وقعي .

بكرا بيعرفوا بنيات الضياعة إني الخطبت . قلي هن مثل ما بتقول كل أم عن خطيب بنتها : إن شاء الله كل肯 بتحظو حظوة شمونة !

خبرين إن ليلة الخطبة كانت ليلة حلوة كثير ولو ما يكون في مانع حداد من جهة الخطيب كان عزم كل أهل الضياعة . قولي هيـك - هذا الدارج في بيروت ، وسلي الحمى بقشر البطيخ ووعديـن إنك بتشيلي الفرق يوم العرس .

هذا إـلي يـخـبرـك بالاختصار . أما من خصوصـكـ مـيكـ بـتشـوفـهـ مشـ مـصـدقـ إنـ كـنـوـ خـطـبـ يـاـ لاـ . بـقصـ وـبـجيـبـ وـبـعـزـقـ مـصـرـيـاتـ منـ غـيرـ دـاعـيـ . كـانـتـ سـهـرـتـوـ لـلـسـاعـةـ تـمـانـيـ صـارـ يـغـطـهـاـ لـلـسـاعـةـ حـدـعـشـ وـلـيـالـيـ لـلـسـاعـةـ تـنـعـشـ . بـالـحـقـيقـةـ إـنـهـ بـسـلـيـ . بـيـقـعـدـ يـخـبـرـكـ شـوـ صـارـ لـهـ بـأـمـيرـكـاـ وـشـوـ شـافـ بـالـنـهـارـ وـمـنـ حـاجـاهـ وـمـنـ حـاكـىـ ، وـأـمـ الـيـاسـ بـتـحـبـ الـخـبـارـ . وـمـرـةـ سـمعـتـ لـكـ يـاـ عـمـ يـتسـاـيرـ مـعـ أـمـ الـيـاسـ ، قـلـهـاـ ...

كـنـتـ مـفـتـكـرـةـ أـطـلـعـلـيـ شـيـ مشـوارـ شـقـ عـلـيـكـ لـكـ بـالـحـقـيقـةـ مـاـ بـقـالـيـ عـيـنـ أـطـلـعـ لـلـضـيـعـةـ . وـاـصـلـ لـكـ شـوـيـةـ مـصـارـيـ ، مـصـرـوـفـ المـنـاـ . وـأـنـاـ لـوـ تـزـوـجـتـ مشـ مـمـكـنـ أـخـلـيـ عـنـكـ . بـهـاـ الجـمـعـةـ الـخـيـاطـةـ بـتـخـلـصـ وـلـحـدـ هـلـقـ مـاـ قـرـرـنـاـ وـبـنـ بـكـونـ الإـكـلـيلـ . رـاحـ أـعـمـلـ جـهـدـيـ تـابـعـتـ جـيـبـكـ لـعـنـدـيـ بـعـدـ مـاـ نـصـقـيـ عـلـيـ رـأـيـ .

ماـ فـيـ لـزـومـ تـخـبـرـيـ عـنـيـ شـيـ . صـحـتـيـ مـلـيـحةـ وـتـنـيـنـيـ عـنـكـ بـهـاـ الـبـرـدـ . لـفـلـفـيـ حـالـكـ مـلـيـحـ لـأـنـ شـهـرـ شـبـاطـ شـهـرـ مـنـحـوسـ وـلـاـ تـنـسـيـشـ اـنـوـ شـهـرـ عـجـائزـ كـمانـ .

بـنـتـكـ شـمـونـةـ

«طارت شمونة»

ولدنا العزيز شمونة

رآنا العجب يا شمونة. صر لي زمان منتظره مكتوب الإكليل ولحد هلق
ما حظيت بمكتوب ولا عرفت شو جرى ولا شو صار.

كل يوم عمل بو سركيس بقلي اليوم منلوف حالتنا تنزل نهنيكي. شو
القصة؟ شو الحكاية؟ العسى ما يكون حصل شي يشغل الفكر. بس ما يكونو
المبغضين خوطر ولو فكره لعرىسك أو تكوني أنت تغيرت فكارك.

بنصحلك يا بنتي وباكيل من بيتنا. لا تقلي ولا صراره. اتكللي على الله ولا
بقا تغييري فكرك. مين بذلك تنطري؟ شو فكرك راح يجي ابن السلطان عبد
الحميد بعد ياخذك؟ هذا حظلك وهذا نصيبك.

بعد ما تتجوزي بتشوفي، وتبقى قولي أمي هاخرفانة حكت. كثار قبلك
علقوا علقتك وصاهم مثل ما صايك، بالآخر رجعوا ستروا حاملن وعاشو
بنوف الله، ما حدا عقل وندم يا شمونة. أنا بهمني تتجوزي تتكفي لسانات
العالم عنك. بتاخذني ميك، بتاخذدي غيره، مش فارقة معندي. الي بتتجوزيه
الله انتي. لا راح أنا بتتجوزو ولا عملك سركيس. نحنا تجوزنا وشعبنا جازى.
حاج بقا يا بنتي! جرصنونا أهل الضيعة. وانت متن قاعدة هون تتسمعي
بديننك. انطبلت الأرض بقصتك. كل شيء بيتعوض من عدا الشرف.

روحى تجوزى واعمل صالحك وترکي بيروت. الله يبعث لها زلزلة، رب
بقلبي علة وما لها دوا.

الله يوجه لك الخير يا بو سركيس قديش قلنتى حتى ودي وراك ورجعلك
وانا قلو: لا، لا، أنا بعرف شو مرباية وشو في عندي. تفسيرها مسختيني
وجرصتيني. وأكثر من هيكل ما راح باكتب لك وفهمك كفایة.

أملك الحنونة

أم شمونة

ما لحقت خلصت المكتوب أم شمونة حتى سمعت حسن عجمة. افتكرت
حدا جي يسهر. لكن من بدو يجي بها الليل والثلج للطواقي؟ من الو خاصيته
يقوم من حد المنقل؟ أخيراً قامت فتحت لقت شمونة ومعها شب ملطفين
بالعي. شهقت أم شمونة وغميت. طبت شمونة ع صدر أمها تبوسا وتحاكيها
وتقللا قومي شوفي بنتك، قومي تعريف ع هالشب الظريف. بعد المجهد الجهيد
وعيت الأم وما عادت عرفت كيف بدا تبوس بنتا.

- إيه احسن هذا يما ميلك؟

- الله يرضي عليك يا بنتي ويوفقك. هذا مش الدكنجي الي كنت تكتبلي
عنو؟

- هذا هو بعينه وبعيناتو!

- وميك شو صفت حواله؟

- تركتو سهران هو وام الياس.

أغاني للضيعة

وهي مجموعة أشعار عامية نظمها الشاعر الشعبي إميل مبارك ، ابن الضيعة اللبنانية. وقد أجاد الشاعر في وصف القرية اللبنانية كما كانت القرية أيام جدودنا . ولكن الحياة تسير بسرعة والمدنية الغربية تغزو القرية النائية الرابضة على القمة والمحبطة في بطن الوادي . والجبل المخضرم أمثال الشاعر إميل مبارك يشعر بحنين مشوب بأسى على تلك الحياة القروية الهانئة . وستبقى هذه الأشعار سجلاً خالداً يقرؤه أبناء القرية بعد أجيال فيتعرفون إلى الحياة التي كان يحياها أجدادهم.

نثفة خوري

على البحر المزدوج ذي الدعامتين وعدد المقاطع في الدعامة الواحدة ٧

يا ما نظمتك أشعار
وكانت روحى تناجيكى
يا ضيعنا نخنا وزغار
يا ما لعبنا بـواديـكـى
ما عـاد الورـد بـنـوارـ
ينـفح عـطـر وـيـهـيـكـى
ودـهـرـ المـذـ عـلـيـكـ وجـارـ
ما عـاد يـذـكـر مـاضـيـكـى

* * *

ولـاـدـكـ هـجـواـ مـنـ القـلـيـ
ما عـادـ قـدـرـواـ حلـواـ الـدـيـنـ
تـرـكـوكـ عـهـالـتـلـىـ
بـغـصـةـ قـلـبـ وـدـمـعـهـ عـيـنـ
عـصـافـيـكـ عـمـ بـتـصـلـيـ
يـفـسـورـ الـبـيـدرـ بـالـغـلـيـ

وَتَرْجُعٌ بِالْجَرْهِ غَلَّي
الْمَلْوَهُ مِنْ مَزْرَابِ الْعَيْنِ

* * *

عَالْضَيْعَا التَّرْكَتَهَا النَّاسُ
يَا دَنَى حَاجَى تَجُورِي
ذَوْقَتِهَا مَرِ الْكَاسُ
وَبَيْسَتْ وَرَدَ الْجَوْرِي
مَشَ بَاقِي إِلَى شَمَاسُ
بَكْنِيسِي، وَنَفَّهَ خَوْرِي
وَالْبَعْدُو يَسْمَعُ قَدَاسُ
مِنَ الطَّاقَةِ عَصْفُورُ دُورِي
وَيَنْكِ يَا بَيْتِ الْمَهْجُورِ
يَا بَيْتِ جَدِي وَبَيْتِ بَيْتِي
مَا فِي قَرْنَةِ بِالْمَعْمُورِ
مَثْلَكَ بِتَحْنَ عَلَّيِ
شَبَابِيكَ رَبُو الْمَنْتُورِ
بَطَاقَاتِكَ غَنَّى الْعَصْفُورِ
فِيَكَ عَيْونِي شَافُوا النُّورِ
وَفِيَكَ يُقْمِضُ عَيْنِي

ضيغتنا

البحر المزدوج

ضيغتنا غامرها النور
مشرورة عا راس التل
مَدْخلهمَا دَرَج زهور
بتشوف جَلَّ بضمِّر الجل
يُخواصاً ورد ومتور
بنضحكلك لِمن بتطل
وبيدوُن صوتو العصِفُور
عا شلال مسوِيشا

★ ★ ★

ضيغا فيها راعي فقير
عبا ما عندو غيرا
بيتلافف فيها بكر
ويتقعد عا الشويرا
ويصير ينْتَر تِنْقير
تا تسکر المنجيزرا

وعصافير الوادي تطير
وعنوة تردد نغمتنا!

* * *

سنونو ثفط مقابليل
لا تخاف مني ولا تنهمم!
ترفرف حولي تكاغيلي
تا تفهمي إنا أم....
وتصير تجيني بجيلى
وممن صوف الغنات تم
وتحسب حالا من العيلى
وأنها حق بطاقتنا

* * *

والقمر كان لو غاياني
بتشتراق وبتشوقة
من خلف الجبل جاي
بيتعربش دقنه ودقنه
شاف الشمس مُعَرَّأي
نقزها وقلاء بقاء....
غضست بالبحر نكيابي
وغابت عنا وتركتنا!

* * *

والصبح مثل العادي
غادي ومدخلة بغير

تايغيل بعنة الوادي
ويفيق العصافير....
شاف المرجى سجادي
حضرها وعليها فرارافير
غطاما بشال رمادي
وخلال الدنيا تخيدننا

★ ★ *

وبتشوف الندى بنisan
عا مدا المرج وطولو
بنخسب، فوق الريحان
الدني مشتايي لولو
وفرارافير لوان لوان
من زهره لزهره، يقولوا:
محلا العيشي بلبنان
وسم اهوا بضياعنا

مشتاق ارجع للضيعة^(١)

مشتاق ارجع للضيعا
إتعْمَشَقْ لي بشي تينة
وصيد عصافيرا
عنت عا بالي الضيعا
ويا ما مشتاق
عبي السلي بيكونعي وحوش جرجيرا!

★ ★ ★

مشتاق عادق المِجُوز
ومرْشِقْ توتات العَوْدِي
وطعمي القرّازات
مشتاق ارجع إتلَقَح
تأخِتِ اللوزات!
الدبّقِي بكمرا

★ ★ ★

مشتاق ارجع عالضيعا
واسرح يمرُوج الخضرا
شووف رفاقت
جو النافي
واسمع دجاجة ستي
عمبقة قاتي ،

(١) وهي على بجين ، الدعامة الأولى على المزدوج ، وعدد المقاطع فيه ٧ ، والدعامة الثانية على التساري وعدد المقاطع فيه ٤.

ورافق جدّي وبقراتو **وَأَخْمِلُوا** النير !

* * *

مشتاق ارجع اتفرج	عا ييت بيبي
وموقدة الکنت حدا	مد جريبي!
مشتاق شوف الصفصافي	ونبع الميري
حد البيت آلي ترکتو	أنا وزغيرا

* * *

مشتاق ارجع عالضيعا	صار لي زمان
نارك مرتي وولادي	وكيل الاخوان
مشتاق ارجع عالصيري	شوف الفدان
شوف الجحشي والتعجي	والقراقير !

قرّادي

يا ضيعتنا مشتاقين ليك يا جارة صنین
حلوين ضياعه لبنان لكن قدّك مش حلويين

★ ★ *

نسيري

(الأميل مبارك)

نسيري يوم الكنا نروح شو قولك وتقليل
وهاك الشباك المفتوح المنو كنت تسميلي

★ ★ *

نسيري هاداك المشوار دغوش ثلي جرتنا
ونسيتي بريق الفخار الشانق حالو بخيمننا
وقديش نخبر أخبار وكانت حلوة عيشتنا
وع الموقد قدام النار من البلوطية تشويلي

★ ★ *

النَّدْب

دموعكم لا تُحجبوها من المحاجر أسكبوها
واتركوا الزهرة اللطيفة الباكية تودع أبوها



ضاع حلم الصبر منا غيبيتك غيمي طويلة
بس وشك غاب عنا قلوبنا صارت ذليلة
غاب كوكب من وطننا يا دموع العين سيلي
الموت ع المقتل طعننا وما بقا باليد حيلة



يا صحابي وقفوني ونص ساعة أمهلوني
والخباب يودعني ليجوا كل القراب

الفهرس

٥	مقدمة
٧	مقدمة
١٣	القسم الاول : في اللغة
١٥	نظرة في نشأة العربية الفصحى
٢٢	المشكلة اللغوية
٣٢	ما هي اللغة ؟
٣٨	كيف نشأت اللغة ؟
٤٧	اللغة والعرق والعقلية
٥٢	علم اللغة
٦٢	اثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي
٧٥	القسم الثاني : في نشأة اللهجة الادبية والمحكية
٧٧	لغة ولهجة
٨٠	السلطة العليا
٨٥	كيف تنشأ اللهجة ؟
٩٧	العامية لغة قائمة بذاتها ، حية متطرفة
١١١	القسم الثالث : اللهجة واسلوب دراستها
١١٣	فوائد دراسة اللهجات

١١٥	الاسلوب
١٢٤	الحروف المصوّة
١٣٠	اللهجة اللبنانيّة
١٤١	اغاني للضيّعة
١٤٢	نقطة خوري
١٤٤	ضيّعتنا
١٤٧	مشتاق ارجع للضيّعة
١٤٩	قرادي
١٤٩	نسيري
١٥٠	الندب



SATINALMA

٢٥ - ١١ - ١٩٩٦

Iraqi Kitab